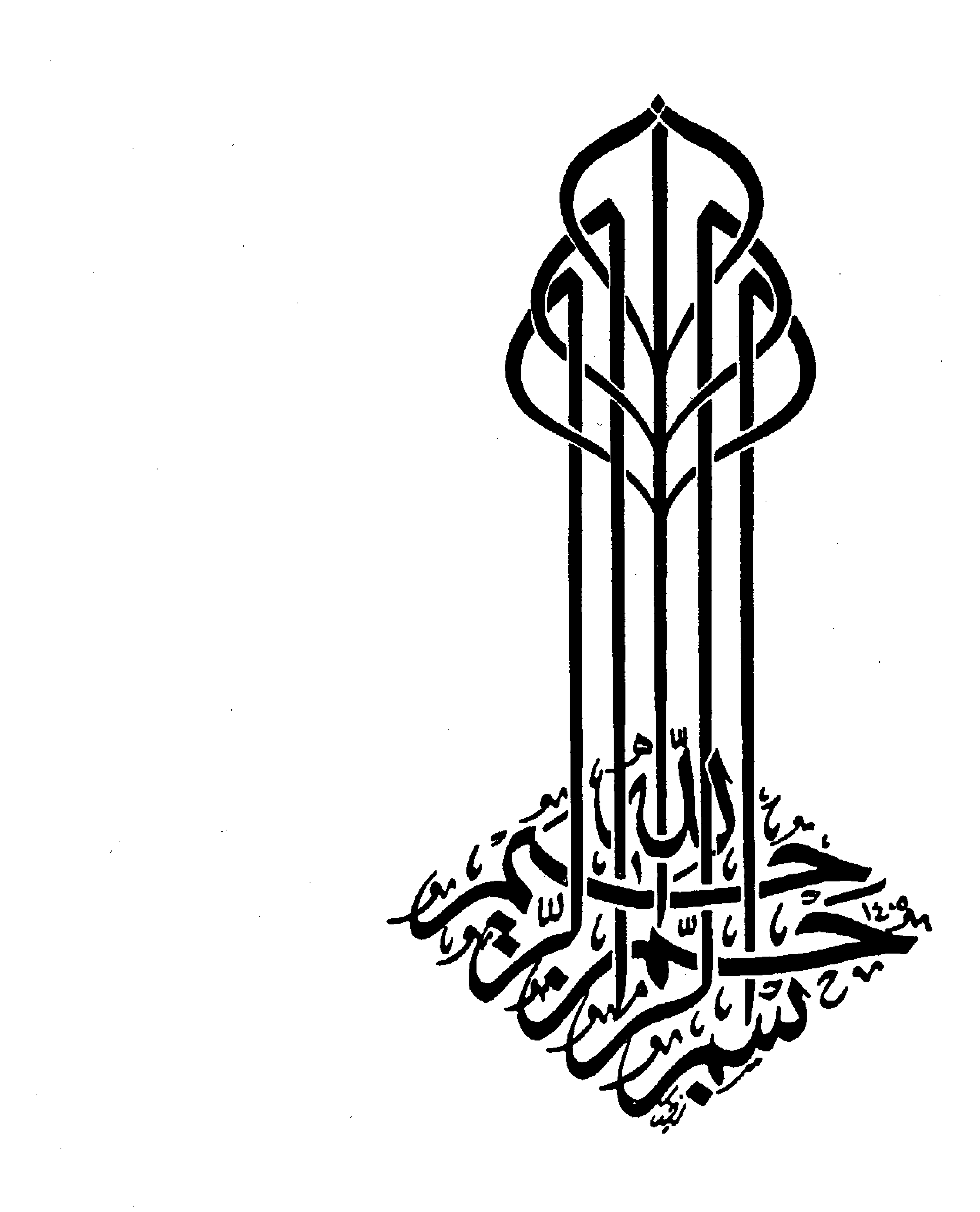


مجلة
الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

مجلة علمية دورية محكّمة

العدد الأول ـ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ

- واقع اللغة العربية ومستقبلها .
- تشابه الأطراف من بدائع النظم القرآني .
- المدود حركات أم حروف ؟
- شرح تحفة الإخوان في علم البيان .
- الشعر المنسوب إلى الجن وعلاقته بمفهوم الشعر عند العرب .


بسم الله الرحمن الرحيم

أعضاء الهيئة الاستشارية

واقع اللغة العربية ومستقبلها

د. عبدالعزيز بن حميد الحميد

مدخل

تنظر الأمم إلى اللغة على أنها شعارها الحامل لتراثها والمعبّر عنها، ولذا تحرص على الحفاظ عليه والدفاع عنه، وقد صوّر الأديب مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - أثر اللغة في حياة الأمة بقوله: «وما ذلّت لغة شعبٍ إلاّ ذلّ، ولا انحطّت إلاّ كان أمرُه في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبيُّ المستعمرُ لغتَه فرضاً على الأمّة المستعمَرة، ويَركبُهم بها، ويُشعرهم عظمتَه فيها، ويستلحِقُهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أمّا الأول فحَبْس لغتِهم في لغتِه سجناً مؤبّداً، وأمّا الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل مَحْواً ونسياناً، وأمّا الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمرِه تَبَعٌ»[1].

ولا يخفى على الناظر إلى الصراع بين الأمم أنّ استهداف الأممِ القويّةِ الأممَ الضعيفةَ لا يقتصر على جانب واحد من جوانب الصراع، فاللغات تُستهدف من قِبَل الأعداء كما تُستهدف الأرواح والأخلاق والأديان.

ومما هو معلوم في الصراع بين الأمم أنّ قدرة الأمة القوية على إضعاف لغة أمةٍ ضعيفةٍ أو مسخها والقضاء عليها من أقوى علامات انتصارها عليها، ولهذا نرى غيرة الأمم على لغاتها والذود عنها، لشعورها بأنّها تدافع دون هويّتها وشعارها، ولا يخفى علينا ما يُضرب به المثل أحياناً من غَيرة بعض الشعوب واعتدادهم بلغاتهم، ومع أنّ الكثير من الأمم كذلك لكنّي سأذكر بعض الشعوب الغربية كالألمان والفرنسيين، فهم يُذكرون بغيرتهم على لغاتهم ورغبتهم أن يُخاطبوا بها لا بلغة أجنبية، بل من أقوى الشواهد على الاعتداد باللغة في ميدان السياسة - مع ما يحكمه من أنظمة وآداب - هو ما تناقلته وكالات الأنباء من غضب الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك وخروجه من أحد المؤتمرات حين ألقى أحد الفرنسيين

---

(١) وحي القلم - الرافعي ٣/٢٩.

خطاباً باللغة الإنجليزية، فمع التقارب بين اللغتين وبين المتحدثين بهما في المبادئ والدين، لكنّ الحفاظ على الهويّة القوميّة هو الذي يدفع إلى مثل هذه المواقف.

وعندما أُقيم كأس العالم في كرة القدم في فرنسا عام ١٩٩٨م كانت اللغة الرسمية لدى الفيفا الإنجليزية، لكن فرنسا هددت بإلغاء كأس العالم إن قُرّر أن تكون الفرنسية اللغة الثانية ..!.

كما أن فرنسا تنفق على الشقّ الفرنسي في كندا بلايين الفرنكات، وتواجه اللغة الإنجليزية بعنف، فقد صدر قانون عن مجلس الشيوخ الفرنسي يجرم من يتحدث الإنجليزية في الوزارات والإدارات العامة، وقامت فرنسا بتغيير اللافتات التي كتبت بالإنجليزية إلى الفرنسية، ورفضت فرنسا باخرة محملة بالحواسب قادمة من أمريكا لأنه لم يكن فيها دليل الاستخدام باللغة الفرنسية [1].

ألا يُفهم من فعل الفرنسيين أنهم يفضلون الفرنسية على غيرها من اللغات ؟! هل يضيرهم هذا ؟ لا أحسب أن أحداً سيؤاخذهم عليه، بل يُعدّ هذا دليل حفاظهم على كيانهم وحضارتهم.

وقد صوّر الأديب مصطفى صادق الرافعي مبلغَ حفاظ المجمع العلميّ الفرنسيّ على الفرنسية وسعيه إلى تغيير كلمةٍ إنجليزيةٍ دخيلةٍ عليها فقال: «وهل أعجب من أن المجمع العلميّ الفرنسيّ يؤذّن في قومه بإبطال كلمة إنجليزية كانت في الألسنة من أثر الحرب الكبرى، ويوجب إسقاطها من اللغة جملةً، وهي كلمة (نظام الحصر البحري)، وكانت مما جاءت مع نكبات فرنسا في الحرب العظمى، فلما ذهبت تلك النكبات رأى المجمع العلميّ أن الكلمة وحدها نكبة على اللغة، كأنها جنديّ دولةٍ أجنبيةٍ في أرض دولة مستقلة بشارَته وسلاحه وعَلَمه يعلن عن قهر أو غلبة أو استعباد» [2]، فإذا كان الفرنسيون ينظرون إلى كلمة إنجليزية دخلت

(١) ذكر ذلك د. رشيد بلحبيب – في حوار معه حول واقع اللغة العربية في الاستعمال اليومي. موقع (صوت العربية) www.voiceofarabic.com

(٢) تحت راية القرآن – مصطفى صادق الرافعي ص ٢٠-٢١.

الفرنسية في ظروف الحرب، مع التقارب بين اللغتين واتّحاد الأصل بينهما فماذا نقول نحن عن السيل الجارف من الكلمات التي تدخل لغتنا دون رقيب ؟ .

أليس من حقّنا أن نفتخر بلغتنا ونفضلها على جميع اللغات وقد فضلها بعض الناطقين باللغات الأخرى من المستشرقين ودارسيها من غير العرب ؟

غيرُ مجهولٍ ما اختصّت به العربية من خاصيّة لا يشاركها فيها غيرها ؛ من اتصال ماضيها السحيق بحاضرها ؛ فأيّ عربي يستطيع قراءة ما كُتب قبل ١٥ قرناً ويفهم أغلبه، فهي لم يجرِ عليها ما جرى على اللغات الأخرى من التغيّر المستمرّ الذي يبدّل اللغة ونظامها، فتبدو بصورة جديدة تمنع أهلها من فهم ما كُتب بها قبل بضعة قرون، هذه حال أكثر اللغات العالمية، أما لغتنا فهي ثابتة في أصولها ونظامها، متجدّدة في ألفاظها ومعانيها، وهو ما يجعلنا نقرأ كلاماً قيل قبل الإسلام ونفهمه، لكنّها في الجانب الآخر متطوّرة في ألفاظها ومعانيها، فمنذ صدر الإسلام وحتى عصرنا الحاضر وألفاظ اللغة تتطور، فتولد ألفاظ وتموت أخرى، وتتطور معاني ألفاظٍ لتلبّي حاجة المتحدثين باللغة، فتكتسب ألفاظٌ قديمةٌ معاني جديدة، وهو أمر أكبر من الحاجة إلى إثباته .

أيحقّ لنا بعد ذلك أن نتساءل عن سبب عزوف العديد منّا عن الاعتزاز بلغته كما يفعل الآخرون؟

ما الذي يجعل الكثير منا يُعجب بلغاتٍ أجنبيّةٍ هي أقلّ قدراً وثراءً من لغته ؟

أيكون الشعور بالنقص أحد هذه الأسباب ؟

أيكون ضعفُ أحدنا بلغته وقلة بضاعته منها سببَ ضعف انتمائه إليها ونقده لها؟

هل يصحّ القول هنا : **الإنسان عدوُّ ما جَهِلَ** ؟، ولا ينكر ناظرٌ أن الجاهل بالشيء قد يرفضه أحياناً بسبب جهله به، وقد قال يحيى بن خالد لابنه: «عليك بكلّ نوعٍ من العلمِ فخذ منه، فإنّ المرءَ عَدُوُّ مَا جَهِلَ، وأنا أكره أنْ تكونَ عَدُوَّ شَيْءٍ من العلمِ».

إنّ ما نلحظه من تضخيم بعض الكتّاب مسائلَ جدليّةً تبدو يسيرةً غير ذات بالٍ، هو للرغبة في لفت الأنظار وإثارة زوبعةٍ من الكتابات للردّ عليه، فالمجادل المحبّ

للجدال يجد في مثل تلك المسائل مجالاً للقول هو من قبيل الإثارة في أحيانٍ كثيرة، وإذا اجتمع معه جهلٌ بما يكتب عنه تكون النتيجة أكثر سوءاً، ولذا فالكتابة أحياناً يعتوِرُها أحدُ أمرين :

[١] حبّ الجدال والإثارة، وهو ما يدفع الكاتب إلى المبالغة والخوض في مسائل يسيرة وتضخيمها.

[٢] الجهل بما يكتب عنه، وهو ما يدفعه إلى الوقوف موقف المجانب للصواب فيما لا يحسنه، فالإنسان عدوٌّ لما يجهله، وفي ميدان اللغة وبسبب قصور المجادل أو ضعف بضاعته يدفعه ذلك إلى الشطط فيما يذهب إليه من آراء ! .

ويمكنني فيما يلي ذكر إحدى المسائل الجدليّة مثالاً على ما ذكرته :

هل للعربية فضلٌ ليس لغيرها[1]؟:

قد يبدو طرح هذا السؤال غريباً ؛ لأنّ الكثير من المسلمين عرباً وعجماً يُجمعون على تعظيم العربية وتفضيلها على غيرها من اللغات، فهي في نظرهم لغة الدين من قرآنٍ وسنّةٍ وتراثٍ علميّ، فليس لهذا السؤال مكانٌ لديهم .

لا أحسب أن ثبوت فضل العربيّة متوقّفٌ على ورود نصوصٍ صريحةٍ فيه، وعلى احتمال عدم وجود تلك النصوص فاللغة وسيلة ليست غايةً ؛ فهي الأداة التي يتخاطب بها أهلها لإفهام بعضهم بعضاً مرادَهم، فتكتسب قيمتَها من شرف ما تحمله، والأمر كذلك في العربية ؛ فهي تحمل النصوص الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف، وغيرهما من العلوم الشرعية وغيرها، ولذا فاكتسابُ العربيةِ الفضلَ جاء من شرف ما تحمله من كلام، ولا عجب في ذلك فالأماكن والأشياء تكتسب الفضل والقيمة ممّا يحلّ فيها .

---

(١) جاء طرح مسألة أفضليّة العربية هنا نتيجة لما طرحه د. محمد صفاء العلواني في جريدة الحياة ٢٠٠٧/٢/٢، فقد نفى أفضلية العربية، وكان مقاله بداية سلسلة من المقالات في أغلبها ردود عليه، وبعضها انتصار له، ورغبت في مناقشة المسألة بعيداً عن العاطفة بطرحها طرحاً علمياً والوقوف عند بعض الجزئيات التي لم ترد في أغلب تلك الردود .

كانت العربية قبل الإسلام لغةً كغيرها من اللغات، لكنها كانت قد بلغت الغاية في نضجها حينما اختارها الله عزّ وجلّ لتكون لغة كتابه الكريم ورسوله الخاتم فاكتسبت أفضليّتها من ارتباطها الوثيق بالإسلام .

لا يجادل عارفٌ بحال العربيّة ببلوغها الغاية في النضج، فقد كان أهلها على درجة عالية من الفصاحة، ولا يخفى على مطلعٍ عناية العرب بفنون الكلام شعراً ونثراً، والسعي إلى الارتقاء به والتفاخر بينهم فيه، ففي الحين الذي تميّزت شعوبٌ بحضاراتٍ وعلومٍ مختلفة كان تميّز العرب بمعرفتهم بفنون الكلام، ولذا جاء القرآنُ معجزاً في أعلى درجات الكمال في هذا الجانب، وفهم العرب ذلك وهم على شركهم، ووقفوا أمامه مندهشين فصدرت من بعضهم أقوالٌ تدلّ على ذلك، ولم يصدر منهم ما يقدح في فصاحة القرآن مع عنادهم وعداوتهم له، بل إنّهم نعتوه بالسحر فراراً من الإيمان به مع إدراكهم بقوة تأثيره .

من أعظم جوانب إعجاز القرآن الكريم الجانب اللغوي فيه، ولما جاء تحديهم أن يأتوا بمثله في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، أو بعشر سورٍ مثله في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، أو بسورةٍ من مثله في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، كان تحديهم فيما يحسنونه وهو الكلام، وإلاّ لم يكن معجزاً، فكيف لا يكون للغة العربيّة قدرٌ وفضلٌ وقد أطاقت حمل كلام الله عزّ وجلّ وتحدّى الله أهلها أن ينسجوا على منواله ؟ .

لا أعلم أنّ أفضليّة العربيّة طُرحت للجدال على مدى التاريخ، فقد درجَ المسلمون علماءَ وعامّةً ينظرون إلى العربيّة على أنها لغة الأمّة، فيشعرون نحوها بالانتماء والاعتزاز، إلى جانب كونها لغة الدين فهم يصلّون بها ويقرؤون القرآن، ولذا فلم تكن تلك المسألة خلافيّةً بينهم تستدعي الوقوف عندها .

قبل مجيء الإسلام كانت العربيّة كأيّة لغةٍ أخرى لا تعدو كونها لغةَ شعبٍ تغلب عليه البداوة، مع بلوغها درجةً عاليةً من النضج، لكنّ الأمر تبدّل بعد الإسلام فأصبحت اللغةَ التي نزل القرآن بها، وتحدّث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبدأ الارتباط الوثيق بين الدين واللغة منذ ذلك الوقت، فأصبح العرب يرونها الوعاءَ الحاملَ للدين لا يُفهم الدين إلاّ بمعرفتها، وعلى هذا صدرت أقوالٌ عديدة من سلف الأمة وعلمائها تدلّ على التلازم الوثيق بين الدين واللغة، وأصبح المسلمون من غير العرب ينظرون إليها نظرة تقديرٍ وتعظيم ؛ فهي مفتاح فهمهم للدين، بل أصبح السعي إلى تعلّمها علامةً واضحةً في تاريخ انتشارها، فقد كانت لغةَ الجزيرة العربيّة ثم بدأت تنتشر بانتشار الإسلام وتكتسح كثيراً من مناطق اللغات الأخرى فتقضي على بعضها وتؤثّر تأثيراً بالغاً في بعضها، ولم يشكّ أحدٌ بأنّ الإسلام وحده هو الذي أكسب العربية ذلك التغيّر الكبير.

لقد ذكر المؤرخ والفيلسوف الفرنسي (كوستاف لوبون) في كتابه "حضارة العرب": «أن اللغة العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب، حيث خَلَفَت تماماً اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية، واليونانية، والقبطية، والبربرية... ووقع نفس الحادث كذلك في فارس مدة طويلة. ورغم انبعاث الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين»[١].

وقال (جورج ريفوار): «إن نفوذ العربية أصبح بعيد المدى، حتى إن جانباً من أوربا الجنوبية أيقن بأن العربية هي الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب. وأن رجال الكنيسة اضطروا إلى ترجمة مجموعاتهم الدينية إلى العربية لتسهل قراءتها في الكنائس الإسبانية، وأن "جان سيفل" وجد نفسه مضطراً إلى أن يحرّر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس»[٢].

---

(١) بحث (اللغة العربية وتحديات العصر) الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله - مجلة اللسان العربي - العدد (١٣) السنة ١٩٧٦م

(٢) المصدر السابق.

ويؤكد المستشرق الهولندي رينهارت دوزي أن أهل الذوق من الأسبان بهرتهم نصاعة الأدب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية، وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين، فاللغة العربية ظلت أداة الثقافة والفكر في اسبانيا إلى عام ١٥٧٠، ففي ناحية "بلنسية" استعملت بعض القرى اللغة العربية لغة لها إلى أوائل القرن التاسع عشر، وقد جمع أحد أساتذة كلية مدريد (١١٥١) عقداً في موضوع البيوع محرراً بالعربية[1].

طَرح التساؤل حول (**أفضلية العربية على سائر اللغات**) هو نوعٌ من الإثارة !!! فهل المقصود : أفضلية العربية لدى المسلمين، أو أفضليتها لدى غير المسلمين ؟ أما لدى المسلمين فهل يُلام المسلم إنْ آمنَ واعتقد أن العربية أفضل اللغات، وهي لغته القوميّة، ولغة دينه وتراثه ؟ لا أظنّ أنّ طرح التساؤل من الناحية العلميّة له قيمة ؛ ذلك أنه لا أحد يفرض على المسلم ألا يحبّ لغته أو يفضّلها على غيرها، بل إنّ الكثير من الشعوب المسلمة من غير العرب ترى ذلك، كما أن كثيراً من دارسي العربيّة من غير المسلمين قالوا بذلك – **وسترد بعض أقوالهم لاحقاً** – إيماناً بتفوّق العربية على كثير من اللغات، وكثيرٌ من الناطقين بلغاتٍ أخرى يرون في لغاتهم أنّها أفضل اللغات فلا يُلامون على ذلك .

أما طرح أفضلية العربية على متحدثي اللغات الأخرى فالمسلمون لم يطرحوها على الأمم الأخرى لإقناعهم بأفضليّة لغتهم، ولم تصبح مسألة نقاشٍ علميّ، وبذا لا تكون القضيّة مثيرةً وجديرة بالطرح .

يجدر بنا **التساؤل هنا** : هل نوقشت مسألة (أفضلية العربيّة) مناقشة علميّة بين العلماء كأيّة قضيّة خلافيّة افترقوا فيها على أقوال واشتدّ فيها الاختلاف؟

والجواب : هو أني لا أعلم أنها أخذت من النقاش العلميّ الجادّ لدى علماء العرب، فهم جميعاً يتفقون على فضلها وقيمتها وأهميّتها لهم في فهم الدين، ولذا لا عجب من أنها لم تكن مسألة كبيرة لديهم .

---

(١) لغتنا الجميلة في زمن العولمة - الدكتور نحاج قدور، (عن تاريخ مسلمي أسبانيا لرينهارت دوزي، ٣١٧/١)، ينظر شبكة الدفاع عن السنة:
http://www.d-sunnah.net/forum/archive/index.php/t-٣٨٤٣٢.html

كما لم تصبح أفضلية العربية مشكلةً في هذا العصر ولم تشغل الباحثين لتستحقّ النقاش العلميّ .

إن الانجذاب إلى غرائب الأقوال قد يدلّ أحياناً على فقرٍ علميّ نحاول سدّه بإثارة مسائل لا تستدعي النقاش لأنها غير ملحّة !! والعجب أننا مع رغبتنا في الحوار – وهو ما يدلّ عليه ذلك الانجذاب – نترك الكثير من المسائل التي تستحقّ النقاش إلى مسائل جدليّة !! .

أليس الأولى بالنقاش والجدال قضايا أخرى أكثر إلحاحاً كالتساؤل عن : (قدرة العربية على التطور)، (تعليم العلوم التطبيقية بالعربية)، (ما تختلف فيه العربية عن غيرها من اللغات)، (فشلنا في تعليم العربية وأسباب ذلك) ؟ أليست لأهميّتها واتصالها بواقع اللغة أولى من مسألة (أفضليّة العربيّة) التي لم تصبح مشكلةً لدينا ؟.

لعل استدلال من رأى عدم أفضلية العربية برأي **ابن حزمٍ الظاهري** أقوى دليلٍ على قلّةِ من قال بهذا الرأي !! فابن حزم ليس معروفاً بين علماء اللغة بل هو فقيهٌ ظاهريّ !! وله من الشذوذ في بعض آرائه الشرعيّة ما هو معروفٌ عنه، ولعلّ مذهبه الفقهي إلى جانب تأثره بالمنطق له الأثر الجليّ في مخالفته المشهورَ عند علماء المسلمين، ويجدر هنا إيراد بعض آرائه الغريبة لكيلا نعجب من ذهابه إلى عدم أفضليّة العربيّة :

* تجهيله بعض سلف الأمة من العلماء المشهورين، مثل الترمذي صاحب السنن والوقوع في العديد منهم، قال ابن كثير في (البداية والنهاية): " وجهالةُ ابنِ حَزْمٍ لأبي عيسى الترمذي لا تضرّه حيثُ قال في (مُحَلاّهُ): «ومنْ محمَّدُ بنُ عيسى بنِ سَوْرَةَ ؟ فإن جهالته لا تضعُ من قَدْرِهِ عندَ أهلِ العلمِ، بل وضعتْ منزلة ابنِ حَزمٍ عندَ الحُفَّاظِ»[1]، وقال ابن كثير أيضاً في (البداية والنهاية تحت أحداث سنة ٤٥٦هـ): «وكان ابنُ حَزْمٍ كثيرَ الوَقِيعَةِ في العلماء بلسانِهِ وقلمِه، فأورثهُ ذلك حقداً في قُلوبِ

(١) البداية والنهاية – ابن كثير ٦٧/١١

أهلِ زمانهِ، وما زالوا بهِ حتَّى بَغَّضوه إلى ملوكهم، فطردوهُ عن بلادِهِ، حتَّى كانت وفاتُه في قريةٍ لهُ في شَعبانَ من هذه السَّنة وقد جاوز التسعين "[١] .

* تفضيله زوجات النبي ﷺ على العشرة المبشرين بالجنة، قال شيخ الإسلام: «وأما نساء النبي ﷺ فلم يقل إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم، وهو قول شاذٌ لم يسبقه إليه أحد وأنكره عليه من بلغه من أعيان العلماء، ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول وحجته التي احتج بها فاسدة»[٢] .

* ذهابه إلى أن قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لا يفيد النهي عن الضرب، فقد ذكر ابن تيمية أنه اختيار ابن حزم، وذكر أنه في غاية الضعف[٣] .

* ما اشتهر عنه من ذهابه إلى أن السعي بين الصفا والمروة يكون بأربعة عشر شوطاً ؛ أي بأن يكون الشوط الواحد بالذهاب والعودة إلى الصفا .

ومن الأقوال في ميدان اللغة التي شذّ فيها ابن حزم وخالف المشهور عند العلماء:

* تضييقه الاشتقاق بقوله: " والذي نعتقد ونقول ونقطع على صحته أن الاشتقاقَ كلّه باطلٌ حاشا أسماء الفاعلين من أفعالهم فقط "[٤]، وهو قول في منتهى الغرابة والشذوذ .

العجيب أن من استدلّ برأي ابن حزم في عدم أفضلية العربية – وهو د. محمد صفاء العلواني - شنّع على من ذهب إلى أنّ اللغة توقيفية فقال: «هذا وقد صرح ثلّةٌ من المفكرين بأن التعصّب بلغ بالبعض إلى الزعم بأن اللغة العربية هي لغة الدين فأحاطوها بالقدسية وجعلوها توقيفية، حتى جعلوه نظرية، بل حقيقة ثابتة بزعمهم، وعليه فهم يحرّمون كل من يرفض نظريتهم»[٥] .

---

(١) البداية والنهاية – ابن كثير ٩٢/١٢

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٩٥

(٣) ينظر مجموع الفتاوى ٢١ /٢٠٧

(٤) الإحكام شرح أصول الأحكام ٤٣١/١

(٥) جريدة الحياة ٢/٢/٢٠٠٧م.

لا أدري مَنْ هذا الفريق الذي يجرّم كلَّ من يرفض نظريتهم !! فلا أعلم وجودَ مثل هذا الفريق من العرب القدماء والمعاصرين !!، والمعلوم في هذه المسألة أنها مسألة جدلية، وكل أصحاب نظرية رجحوا نظريتهم على غيرها، ولم يصل الأمر إلى التجريم !!!، والعجيب هو التعميم دون التحديد "... **ثلة من المفكرين**" وهو ما يفهم أنهم معاصرون !! وهو ما لم يحدث فقد أصبحت هذه المسألة جدلية لا يمكن الوصول فيها إلى رأي قاطع، وأصبح الحديث عنها في العصر الحاضر لا يعدو عرضاً للأقوال المختلفة حولها، لا للوصول إلى الرأي الراجح فيها، بل للعلم بتلك الأقوال مع اليقين باستحالة الوصول إلى رأي قاطع فيها، وأكثر تلك الأقوال قيلت قبل مئات السنين، كما أن هذه النظرية – التوقيف والإلهام – ليست خاصّةً بالعربية، فأغلب القائلين بها عنَوا اللغة الإنسانية الأولى لغة آدم عليه الصلاة والسلام، وهو الغالب في تطبيقهم ذلك القول، ومنهم من جعلها للغات كلها.

قد يبدو الأمر مدهشاً إذا علمنا أنّ ممّن قال بهذه النظرية الفيلسوف اليوناني (هيراكليت ٥٧٦-٤٨٠ ق. م.)، و(أفلاطون ٤٢٧-٣٤٧ ق. م.)، والأب لامي (١٦٣٦-١٧١١م)، والفيلسوف دوبونالد (١٧٥٤-١٨٤٠م).

أمّا بين اللغويين العرب فمن أبرز من قال بهذا القول ابنُ فارس (ت ٣٩٥هـ)، فهو أبرز من ذهب من اللغويّين إلى أن اللغة العربيّة توقيف من الله عزّ وجلّ، فهو لانبهاره بما اشتملت عليه من خصائص رأى أن التوقيف أرجح الأقوال لكنه لم يجرّم من خالفه، وكثير من اللغويّين وقف متردّداً بين عدّة أقوال ؛ ذلك أنّ هذه المسألة وإنْ كثر الحديث عنها عند قدماء الفلاسفة واللغويين العرب والعجم لكنّها تبدو مسألةً جدليّةً لا يمكن الوصول إلى رأيٍ قاطع فيها، ولذا فهي لا تستحقّ أن تكون مأخذاً على من اختار أحد الآراء فيها، ومن أخذ بمذهب التوقيف لم ينفرد عن الكثير من لغويّي الشرق والغرب.

ومن العجب أن يكون ممّن قال بهذا الرأي ابن حزم الظاهري، الذي استدلّ الكاتب برأيه في عدم أفضلية العربية، فقد ذهب إلى أن اللغة توقيف من الله تعالى

والهام، واستدلّ لرأيه ورجحه على كون اللغة اصطلاحية[١] **!!! هل ابن حزمٍ متعصّبٌ** في ترجيح التوقيف واستدلاله له ؟ أم هل هو ممّن جرّم مخالفيه ؟! من العجب أن يستدلّ كاتبٌ برأي ابن حزمٍ في عدم أفضليّة العربيّة مع انفراده به، ويكون هو ممّن قال برأي التوقيف الذي نقده الكاتب وشنّع عليه .

أحسب أن آراء الكثير من العلماء في أفضلية العربية أولى بالأخذ من رأيٍ قليل الأتباع كرأي ابن حزم، ومن العجب عند النظر إلى مَنْ نفى أفضلية العربية أن يبدو ابن حزم فَرْداً في قوله كانفراده بالعديد من الآراء الشرعية واللغوية المخالفة للمشهور عند العلماء !!

إن انفراد بعض العلماء بقولٍ يخالف المشهور لا يجعله جديراً بالأخذ به لقِدَم قائله، فهو مع قدمه بشرٌ يصيب ويخطئ، ومخالفة الجمهور معروفةٌ في أكثر العلوم، فقد يشذّ عالمٌ بنظرته إلى مسألةٍ من المسائل فيكون حكمه ورأيه غريباً مخالفاً للسائد في ذلك العلم، لكنّه قد يحظى بمن يأخذ ذلك الرأي ويفرح به .

ويمكن التمثيل على انفراد بعض العلماء بأقوالٍ تشذّ عن رأي أغلبيّة العلماء بما يلي :

* ابن درستويه (ت ٣٣٧هـ) أحد علماء اللغة المشهورين، ومع تميّزه بتراثه العلميّ لكنّه شذّ في إنكار ظواهر لغويّة معلومة ومقبولة عند كثير من اللغويين ؛ فقد أنكر الترادف والاشتراك والتضادّ، وخالف المشهور والمقبول عند جلّ العلماء، فهل يكون رأي ابن درستويه وهو المعدود في علماء اللغة جديراً بالأخذ لكون صاحبه من القدماء ؟؟ .

قال في إنكاره الترادف : «فأمّا من لغة واحدة فمحالٌ أن يختلف اللفظان والمعنى واحد، كما يظنّ كثير من النحويّين واللغويّين»[٢] .

ومنع الاشتراك وذهب إلى تضييق القول فيه، فكثير من المعاني التي يُظنّ أنها مختلفةٌ هي متفقةٌ في رأيه، وقد ذهب إلى أن اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني،

---

(١) ينظر كتابه الإحكام شرح أصول الأحكام ٣١/١

(٢) تصحيح الفصيح وشرحه - ابن درستويه ص٧٠

ووجود الاشتراك تعمية في اللغة، بل إنّه أنكر التضادّ في اللغة أيضاً، والتضادّ نوع من الاشتراك، قال عن رأيه في الاثنين: «وليس إدخال الإلباس في الكلام من الحكمة والصواب. وواضع اللغة - عز وجل - حكيم عليم، وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز وضع لفظ واحد، للدلالة على معنيين مختلفين، أو أحدهما ضدّ للآخر، لما كان في ذلك إبانة، بل كان تعميةً وتغطيةً»[١].

* ابن مضاء الأندلسي (ت ٥٩٢ هـ) وموقفه المشهور المخالف لعموم العلماء في ثورته على نظرية العامل، ودعوته إلى إلغاء بعض أبواب النحو[٢].

* عليّ بن المستنير قطرب (ت ٢٠٦هـ) وذهابه إلى أنّ حركات الإعراب ليست دليلاً على المعاني، كما هو مجمعٌ عليه عند جمهور علماء اللغة، وإنما هي للتخفيف على اللسان والسرعة في الكلام والتخلص من التقاء الساكنين، مع مخالفته لجمهور العلماء في هذا الأمر، قال في بيان مذهبه: «وإنما أعربت العرب كلامها؛ لأن الاسم في حالة الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان؛ ليعتدل الكلام؛ ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ومتحركين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو كلمة، ولا في حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف متحركة؛ لأنهم في اجتماع الساكنين يبطؤون، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون، وتذهب المهلة في كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الإسكان»[٣]. ولا يشكّ عارفٌ باللغة غرابة هذا القول وشذوذه وانفراد قطرب به.

---

(١) المصدر السابق ص ٧١.

(٢) ينظر لتفصيل ذلك كتابه "الرد على النحاة" الذي حققه الدكتور شوقي ضيف ونشرته دار الفكر العربي بالقاهرة.

(٣) الإيضاح في علل النحو – الزجاجي ص ٧٠

إنّ انفراد بعض الناس بأقوالٍ شاذّةٍ تخالف السائد قد يبدو مبرَّراً منه بحجّة أنّه توصّل إليه باجتهاده، لكنّ الناظر في ذلك القول وفي الأقوال التي خالفها يستطيع تبصّر الحقّ فيه، فلا يعذر حينما يميل إلى ذلك القول الشاذّ ؛ ذلك أنّ الغالب في أحوال الناس نفورهم من القول الشاذّ، غير أنّ منهم من هو مغرمٌ بغرائب الأقوال والأخبار فهو يتتبّعها ويأخذ بها، ثمّ يبذل جهده في تبنّيها والاستدلال بها، وكأنّه بذلك يسعى إلى لفت الأنظار، فكأنّ القائل حين قال: " خالفْ تُذْكَر " عناه بقوله .

ما ورد من أقوالٍ في فضل العربيّة وكونها لغة الدين:

فيما يلي يحسن إيراد أقوالٍ عديدةٍ عن أفضليّة العربية وارتباطها بالدين، وهو ما يعطي الدلالة الواضحة على أنّه الرأي المأخوذ به عند عموم المسلمين .

مع ورود الأقوال التالية لسلف الأمة من الصحابة والتابعين والعلماء عن الارتباط الوثيق بين العربية والدين ألا يُعدّ ذلك نصّاً على أفضليّتها ؟ .. فيما يلي بعض تلك الأقوال :

* قال عمر بن الخطاب ﷺ: (تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم) وكما يظهر هنا أنّه ﷺ جعل العربية من الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على قول عمر: «وهذا الذي أمر به عمر ﷺ من فقه العربية، وفقه الشريعة، يجمع ما يُحتاج إليه، لأن الدين فيه فقه أقوالٍ وأعمالٍ، ففقهُ العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنّة هو فقه أعماله»[(١)] .

* لم يكن السلف يشكّون في الحاجة إلى العلم باللغة – وهو دليل أهميّتها – لفهم النصوص الشرعية، فربما قدّموا العلم بها على العلم بالحديث للحاجة إليها لفهم الحديث، فهذا وكيع رحمه الله قال: «أتيت الأعمش أسمع منه الحديث، وكنتُ ربما لحنتُ فقال لي : يا أبا سفيان تركتَ ما هو أولى بك من الحديث، فقلتُ : يا أبا محمد وأيّ شيءٍ أولى من الحديث ؟ فقال : النحو، فأملى عليّ الأعمشُ النحوَ ثم أملى عليّ الحديث»[(٢)].

(١) اقتضاء الصراط المستقيم – ابن تيمية ١/ ٤٧٠

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع – الخطيب البغدادي ٢/ ٢٦

ولا يقولنّ قائل : إنك خرجت من أفضلية العربية وصلتها بالدين إلى علم النحو !! فالنحو هنا لم يُردْ به الأعمش القواعد مجرّدة عن النظر في المعاني بل يلزم لفهم قواعد النحو مراعاة أنظمة اللغة الأخرى الصرفية والصوتية والدلالية، فاللغة كلٌّ لا يتجزّأ .

* قال الشافعي رحمه الله: «وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسانَ من ختمَ به نبوتّه، وأنزل به آخر كتبه ؛ كان خيراً له»(١) .

*وابن تيميّة يأتي من أعظم علماء المسلمين ممّن جمع العلم الشرعيّ إلى جانب علمه بلغة العرب، فمع ضخامة إنتاجه العلميّ في علوم الشريعة المختلفة، لكنّه لم يبتعد عن علوم العربيّة ؛ لإدراكه الصلة الوثيقة بين علوم الشريعة وعلوم اللغة، وفي قوله التالي ما يدلّ على ذلك، فقد قال: " لا بُدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهَم كلامُه، فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها ممّا يُعين على أن نفقه مرادَ اللهِ ورسولِه بكلامِه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإنّ عامّة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنّهم صاروا يحملون كلامَ اللهِ ورسولِه على ما يَدّعون أنّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك "(٢) .

كما أنّ اللغة شعار المسلمين، وعليه فلا غرابة من أن يكتسب هذا الشعار أفضليّةً على غيره، فقد قال ابن تيمية رحمه الله: «فإنّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون»(٣) .

* وفي قول ابن تيمية التالي ما يدلّ على اتّفاق العديد من علماء الشريعة على الارتباط الوثيق بين الدين واللغة ، وعلى أن الحديث بالعربية من الشعائر التي يحرصون عليها ويأبون تركها، قال: «وما زال السلف يكرهون تغييرَ شعائرِ العربِ حتى في المعاملات

(١) الرسالة – الشافعي ص٤٩

(٢) الإيمان – ابن تيمية ص ١١١- ١١٢

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٤٦٢/١

وهو التكلّم بغير العربية إلاّ لحاجة، كما نصّ على ذلك مالكٌ والشافعيّ وأحمد، بل قال مالك: مَنْ تكلّم في مسجدنا بغير العربية أُخرِجَ منه. مع أنّ سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوّغوها للحاجة، وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر الإسلام، فإن الله أنزل كتابه باللسان العربي، وبعث به نبيه العربي، وجعل الأمة العربية خير الأمم، فصار حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام»[1].

ألا يكفي اتفاق مالك والشافعي وأحمد على التزام العربية وتجنّب الحديث بغيرها دليلاً على أفضليّتها لديهم على بقية اللغات ؟

* قال مالك بن أنس: (لا أُوتَى برجلٍ يفسّر كتاب الله، غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نَكالاً)[2].

* وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها»[3].

* ويأتي ابن تيميّة أيضاً ليخبرنا بأن القرب والبعد عن العربيّة هو معيارٌ لقربنا أو بعدنا من مصادر عزّتنا من سلف الأمّة، قال: «واعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقلِ والخلقِ والدينِ تأثيراً قويّاً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهةِ صدرِ هذه الأمّةِ من الصحابةِ والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والدينَ والخلقَ، وأيضاً فإنّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجبٌ، فإنّ فهم الكتاب والسنّة فرضٌ، ولا يُفهم إلاّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب»[4].

ألا تدلّ الأقوال السابقة على قوة الرباط والتلازم بين الدين واللغة ؟ وهو ما يصعب معه الفصل بينهما، وبذا اكتسبت العربية الفضل ممّا ارتبطت به ولازمته،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٥٥/٣٢

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣٩٦/١

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ابن قيم الجوزية ص ٩

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٤٦٩/١

ومن المِراء أن يزعم زاعمٌ التفرقة بين أفضليّة العربيّة وصلتها بالدين، فأفضليّتها جاءت من صلتها بالدين وارتباطها به .

ألا تكون تلك الأقوال القويّة جواباً لمن طرح التساؤل حول أفضليّة العربيّة ؟

من قراءتنا تلك الأقوال لا نعجب من كلام أبي منصور الثعالبي – **وهو القول الذي أثار استغراب بعض الكتاب** – عن حبّه للعربيّة وما يتصل بها، وترتيبه ذلك الحبّ ؛ فهو جعل حبّ الرسول ﷺ مترتباً على حبّ الله عز وجل، وحبّ العرب مترتباً على حبّ الرسول ﷺ، وحبّ العربية مترتباً على حبّ العرب، ثمّ ذكر ما اختصّت به العربية من كونها لغة القرآن والدين وهي لازمة لفهمه، فلا غرابة بعد ذلك أن ينظر الثعالبي إلى العربية بأنها خير اللغات والألسنة، وأن الإقبال على تفهمها من الديانة، وهو ما لهجَ به العديد من العلماء في أقوالهم السابق ذكرها .

والثعالبي ذكر الأمر الواقع ؛ فأيّ مسلم وإن كان أعجمياً فلا بدّ أن يحب الرسول العربي ﷺ، ويتبع ذلك حبّ اللغة التي نزل القرآن بها مع كونها لغة رسوله العربيّ، وحينما يحبّ تلك اللغة يُعنى بها ويثابر عليها، ويصرف همته إليها، ولا عجب بعد ذلك أن يحبّ العرب لانتساب الرسول ﷺ إليهم وكون لغة القرآن لغتهم، وهذه حال الداخلين في الإسلام على مدى التاريخ عدا الشعوبيين !! .

لم يطالب أحدٌ بحبّ العربِ جميعِ العربِ مسلمِهم وكافرِهم وفاسقِهم !! لكن أحداً لم ينكر صلة العرب بالإسلام ؛ لكون الرسول صلى الله عليه وسلم منهم، وقد ورد عنه ما يدلّ على أنّ حبّهم من الإيمان، لكنّه لم يعنِ أيّ عربيّ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: **(حب العرب إيمان وبغضهم نفاق)**، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[١] .

كما أنّ القرآن الكريم نزل بلغتهم، وجُلّ التراث الإسلامي والعربي بها، ولذا فنحن نشهد في عصرنا الحاضر الحملات المعادية الظالمة لتشويه العرب وإلصاق النقائص بهم، أليس هذا دليلاً على إدراكهم صلة العرب ولغتهم وتراثهم

(١) المستدرك على الصحيحين – الحاكم النيسابوري ١٦/ ٣١٩

بالإسلام؟، ألا يقصد الأعداء بتشويههم صورة العرب تشويه الإسلام المرتبط بهم ؟ لماذا سلمت شعوبٌ من التشويه مع كونها أقلّ قدراً وعلوماً من العرب ؟.

هل نعجبُ من أبي منصور الثعالبي على أن شعرَ بما لا يشعر بعضنا به ؟ أليس من حقّه أن يرى أن العربيةَ خيرُ اللغاتِ والألسنةِ وهو العالم بها ؟ وكتبه العديدة ومنها (فقه اللغة وأسرار العربية) دليلٌ على علمه بها واطلاعه على أسرارها، ألا يكون الإقبال على تفهمها من الديانة كما قال الثعالبي ؟ !

والثعالبي لم يكن بدْعاً فقد سبقه في نظرته إلى العربية الفاروقُ عمر رضي الله عنه في قوله السابق: (تعلموا العربيّة فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم)[1].

أما الادعاء[2] بأن المهتمين باللسانيات يرفضون رفضاً قاطعاً مبدأ التفاضل بين اللغات أيّاً كان هذا التفاضل فهو ادعاءٌ مبالغٌ فيه، فلا عجب أن يذهب بعضهم مذهباً يرتضيه أو رأياً يأخذ به، لكن لم يحدث أن اتّفقوا على هذا الرفض المُدّعى، وهو إنْ حصل فمن بعضهم كأيّ رأيٍ يأخذ به بعض الباحثين، فالاختلافات بينهم كبيرة وواسعة، وما أكثر ما قرأنا عن الإعجاب الكبير بالعربية من قِبل دارسي العربية والمتخصصين فيها من العجم، بل تفضيلهم العربيّة على العديد من اللغات، وهو إعجابٌ ليس دافعه العاطفة، فهم غير مسلمين، كما لا يمكن أن يكون الجهل باللغات هو الذي دفعهم إلى ذلك ؛ لأن العديد من أولئك يعرف لغاتٍ عديدة، فهو ينظر إلى العربية نظرة عالمٍ يوازن بين عدة لغات.

العجيب أن عدداً من الأفكار التي طُرحت حول نفي التفاضل بين اللغات صدرت في مقالٍ للكاتب الكرديّ **خالد جميل محمد** وعنوانه (المفاضلة بين اللغات)، ولا يخطئ القارئ النفَس الشعوبيّ فيما طرحه من أفكارٍ تساوي بين الخرافات وما جاء في القرآن الكريم، من مثل قوله عن ظاهرة (المفاضلة بين اللغات) ومجانبتها المنهج

---

(١) سبق ذكره مع تعليق ابن تيمية عليه، وهو بتمامه في : اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٧٠

(٢) هو ما ادّعاه د. محمد صفاء العلواني في مقاله الذي نفى فيه أفضلية العربية . جريدة الحياة ٢٠٠٧/٢/٢

العلميّ: «حيث شاكلت هذه الظاهرةُ ظاهرةَ تقديم شعب على غيره من الشعوب استناداً إلى فرضيات تحدثت عن شعب الله المختار، والعرق النقي، أو فرضيات تحدثت عن خير أمة أخرجت للناس»[1]، فقد جعل ما ورد في قوله تعالى: " كنتم خير أمّة أخرجت للناس " من الفرضيات وكأنه من قول البشر !.

ولا يخطئ القارئ لفكر الكاتب الكردي خالد جميل محمد حول المفاضلة بين اللغات أنّ العديد من أفكاره وردت في بعض الكتابات التي دارت حول هذه المسألة، أذكر بعضها فيما يلي :

* قال الكاتب الكردي عن اليونانيين: «وبلغ بهم ذلك حداً نعتوا فيه لغات غيرهم بنباح الكلاب ونقيق الضفادع "، وقد قال أحدهم: " وقد غلط في ذلك جالينوس فقال : إن لغة اليونان أفضل اللغات، لأن سائر اللغات إنما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع»[2] .

* أشار الكاتب إلى قول الثعالبي عن حبّ العربية بقوله: «وكذلك ذهب بعض العرب إلى أن العربية هي لغة آدم أبي البشر وأنها خير اللغات والألسنة» على حدّ تعبير الثعالبي، وقد طرحَ أحدُ الكتّاب – ممن خاض في أفضليّة العربية – قولَ الثعالبي وانتقده.

* قال عن العرب: «وسعى بعض العرب إلى إثبات قدسية العربية وأفضليتها، وكمالها وأولويتها استناداً إلى أنها أمّ اللغات، وأنها لغة آدم، وأنها لغة الجنة، بل لغة الله، ولغة "خير أمة أخرجت للناس"!! ولغة النصّ القرآني بوصفه حاملاً إعجاز هذه اللغة ببلاغتها وفصاحتها، وهو نحوٌ لا يختلف في صورته ومنطلقاته وأهدافه عما عرفته اللغات الأخرى التي اختصمت وتنافست وتسابقت على إثبات جدارتها وحدها بتلك الأفضلية والأصالة والأزلية والكمال»[3] .

---

(١) يمكن الرجوع إلى مقال الكاتب خالد جميل محمد في موقع عفرين :
http://www.efrin.net/efrin٠٣/arabi/adab-u-fan/index/٢٠٠٥/٠٩/٢٩,١.htm

(٢) ينظر مقال د. محمد صفاء العلواني الذي نفى فيه أفضلية العربية . جريدة الحياة ٢/٢/٢٠٠٧

(٣) ينظر مقال الكاتب خالد جميل محمد – السابق ذكره – في موقع عفرين .

هل التوافق بين أفكار هذا الكاتب وبعض الأفكار التي طُرحت مبعثها التعصّب والشعوبيّة أم بسبب المصادفة ؟ !!

إنّ محاولة إسقاط قيمة اللغة وإضعافها وفصل فضلها عن فضل ما تحمله من قرآنٍ وسنّةٍ وتراثٍ يتنافى مع ما يحاوله البعض من إظهار الحبّ والعشق لهذه اللغة، ثم إعلانه اليقين الراسخ لديه بعدم أفضليّتها[1] !! مع أنّنا لم نجعل من أفضليّة العربيّة قضيّةً مصيريّة، فلم نُصمّ آذان العالم بمطالبته أن يفضّل العربيّة على لغاته، وإنّما أثار تلك الزوبعة من النقاش حول أفضلية العربية لوحةٌ على جدار إحدى المدارس الخاصّة تحمل عبارة: " تكلّم العربيّة لأنّها أفضل اللغات ولأنها لغة أهل الجنّة "[2] فكانت تلك اللوحة بداية النقاش حول أفضلية العربية، وكأنّما حملت تلك اللوحة أغلاطاً تمسّ أسس الدين !! .

لم نشغل أنفسنا بهذه المسألة بحيث تستحقّ كلّ ما دار حولها من كتابات، لكنّنا نعجب من حماس من خاضَ فيها وجزمَ بعدم أفضليّة العربيّة، وهو حماسٌ نفتقده منهم عند الحديث عن قضايا الأمّة المصيريّة التي تحتاج إلى مثل ذلك الحماس !! .

إنّ الشعور بالانهزاميّة أحياناً يدفع المرء إلى استنقاص ما لديه وإن كان عزيزاً، وإلى استحسان ما لدى غيره مهما كان ! إنّ العجب كل العجب ليس في كلام ابن تيميّة والثعالبي وغيرهما ممّن يرى بعضُنا أن فيه مبالغةً حول العربيّة وفضلها وتميّزها، بل العجب في أن يُشيد بالعربيّة غيرُ أبنائها من المستشرقين، لا لسبب عاطفيّ ولا لجهلٍ باللغات، فهم عالمون بالعديد منها، وشهادة الرجل لغير لغته تدلّ على صدقها، فكيف إذا كان من يشهد للعربيّة غيرُ مسلم؟ ! .

(١) هو ما ورد في مقال د. عبد الله الحمود (نحن لسنا الأفضل بالضرورة ولغتنا العربية ليست أفضل اللغات) صحيفة الجزيرة، الأحد ٢١ صفر ١٤٢٨هـ

(٢) هذا ما ذكره الدكتور محمد صفاء العلواني وكان سبباً لكتابة مقاله الذي نفى فيه أفضلية العربية في جريدة الحياة ٢٠٠٧/٢/٢م وأثار ردوداً وجدالاً بين مؤيد ومخالف له .

وردت أقوالٌ عديدةٌ لمستشرقين ومفكرين غربيّين وشرقيّين، يجدر إيرادها لما لها من أثر في نفس قارئها، فالعربيّ يقرأ إعجابَ غير العربيّ بلغته، فيحفزه هذا إلى محاولة إبصار ما أبصره الأعجميّ من وجوه عظمتها، وليس لقائلٍ أن يقول بعد هذه الأقوال: «إن المهتمّين باللسانيات يرفضون رفضاً قاطعاً مبدأ التفاضل بين اللغات»، فلَعَمري إنّ هؤلاء القوم عُنوا بدراسة اللغات المختلفة ووازنوا بينها وبنوا أحكامهم على نظرةٍ شموليةٍ إلى العديد من اللغات.

أيكون المستشرقون من غير العرب والمسلمين أكثر إنصافاً للعربية من بعض المسلمين ممّن يغالط فيما اختصت به لغته من خصائص؟

ليتَ مَنْ يُحسّ بضعف قدرته اللغويّة يعترف بذلك ولا يسعى إلى إثارة بعض المسائل اليسيرة وتضخيمها والتهويل منها، بل يجد به أن يسعى إلى معرفة اللغة وتقوية حصيلته منها، أو ترك ذلك الميدان لمن يحسنه.

ليس العيبُ في اعترافنا بضعفنا في فهم لغتنا مع السعي إلى تعلّمها، بل العيب يوم نُكابر ونستر ضعفنا بالخوض فيما لا نجيده، ولا يُعاب الإنسان حين يسعى إلى استكمال النقص الذي يشعر به بالسعي إلى الازدياد من العلم والبحث عن الإجابة عمّا يُشكل عليه بدلَ طرح المغالطات على العامّة على أنّها حقائق علميّة.

* * *

من مظاهر الخلط في طرح بعض المسائل المتصلة باللغة أن يذهب كاتبٌ[1] إلى أن تأخّرَ العرب في العصر الحاضر وتقدّمَ غيرهم يفوّت على العربية ما يمكن أن تتميّز به عند موازنتها بالإنجليزية والصينية واليابانية !! وقد نسي ذلك الكاتب أن الحوار الدائر كان عن فضل العربية ومنزلتها، أي أنه عن منزلة العربية وخصائصها وقدرتها التي أكسبتها ذلك الفضل، وهذا الفضل والتميّز لا يزول عند تأخّر أهلها، بل هو ثابت لازم لها ما دامت خصائصها ونظامها لم يتأثرا، وهذا هو حال لغتنا،

(١) هو د. عبد الله الحمود في مقاله (نحن لسنا الأفضل بالضرورة ولغتنا العربية ليست أفضل اللغات) صحيفة الجزيرة، الأحد ٢١ صفر ١٤٢٨هـ

كما أن جَعْلَ الكاتب التفوّق في هذا الأمر للإنجليزية والصينية واليابانية خروج عن السياق الصحيح إلى الحديث عن مستوى اللغة الحالي تأثراً بحضارة أهلها، مع أن مدار الكلام عن أصل اللغة.

ولا يخفى أن الجامع بين الإنجليزية والصينية واليابانية – في كلام الكاتب – هو التقدّم الحضاري لمتحدثيها، ولولا ذلك لما كان مناسباً جمع الإنجليزية إلى الأخريين؛ ذلك أن الصينية واليابانية ليستا من اللغات الراقية بالمعايير اللغوية التي صنّفت اللغات نظراً إلى خصائصها، فلا ترتقي كلٌ منهما إلى خصائص العربية وقدراتها، بل إن العربية – كما أشار لغويون غربيون – تتفوّق في الخصائص على الإنجليزية، وبذا يكون جهد متحدثي اللغات هو المؤثر هنا في كون لغتهم مسايرة للتقدم العلمي والحضاري، وهو ما يلقي علينا اللوم في تأخّر لغتنا.

لا يخفى الفرق بين العربية وغيرها، فتقدم بعض اللغات العالمية في العصر الحديث جاء تأثراً بتقدم أهلها، مع كون تلك اللغات تأتي في منزلة أقلّ من العربية في الخصائص الأصلية والقدرة على التطور، وهو ما أشار إليه العديد من اللغويين من غير العرب، فإذا كانت بعض تلك اللغات تبدو الآن أكثر مسايرةً للحضارة لاجتهاد أهلها فإن في العربية قدراتٍ كامنةً وإمكاناتٍ كبيرةً متأصلةً فيها تجعلها قادرةً على النهوض عند نهضة أهلها وثقتهم بها، وهذا الأمر معلومٌ لدى علماء اللغات، مع خلط بعض الكتاب بين حالة العرب وحالة لغتهم.

لعلّ في ثقة المستشرق الألماني (يوهان فوك ١٨٩٤- ١٩٧٤م) في العربيّة ويقينه بقوتها وبقائها ما يلفت نظرنا وقد فقدنا الثقةَ بها، فهو يشعرنا بالخجل حين قال: «إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية»[1].

(١) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي ص ٣٠٦

حينما نطّلع على مثل هذه الأقوال وما تحمله من ثقةٍ بقدرة العربيّة على أن تكون لغة المدنيّة والعلم نوقن أنّ للجهل بالعربية أبلغَ الأثر في الادّعاء بأنها عاجزة عن مجاراة اللغات الأخرى المعاصرة، فما بلغته تلك اللغات من تقدّم جاء باجتهاد أهلها وترقيتهم لها، مع أنّ بعض تلك اللغات التي تُكتب بها العلوم التطبيقية في بلادها هي لغات لبلادٍ صغيرة، وجاءت تلك اللغات هجيناً من عدّة لغات، ومع ذلك لم يمنع ضعفها من أن تُكتب بها العلوم .

أمّا في العربية فمع اتّفاق الكثير من علماء اللغات الأخرى على عظمة العربيّة وتميّزها وقدرتها على استيعاب التقدّم في العلوم المختلفة، فإنّ الجهل بها يدعو بعض الكتاب إلى اليقين بعجز العربيّة عن ذلك، ويوجد فرقٌ بين أن نوقن بضعف العربيّة وعدم قدرتها في ذاتها، وأن نُقرّ بوجود ذلك الضعف لكنّه بسبب قصور أهلها وتخاذلهم، وهذا التفريق يكشف لنا أنّ لدى العربية القدرة الذاتية لاستيعاب العلوم وأنّ قصورها الواقع الآن بسبب قصور أهلها .

من المعلوم لدى علماء اللغات أنّ أيّة لغة - مهما ضعفت - لديها القدرة على التعبير عمّا يريد المتحدّث بها، فهذا ج. فيندريس يقول: «والواقع أنّنا لا نعلم إطلاقاً لغةً قد قصّرت عن خدمة إنسانٍ عنده فكرة يريد التعبير عنها، فلا نُنصت إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحمّلون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم، لأنّهم هم المسؤولون على وجه العموم عن هذا النقص»(١) .

يتّضح من ذلك مغالطة مَنْ يرى أنّ العربيّة عاجزةٌ عجزاً ذاتيّاً عن أن تكون لغةَ العلم والحضارة، لكن ذلك لا يمنعنا من الإقرار بأن اللغة تحتاج إلى أهلها في ترقيتها وتحديثها، وفرقٌ بين قصور اللغة وقصور أهلها .

قال أ. د. يحيى الرخاوي أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة مصوراً نظرة بعض العرب إلى لغتهم: «الإنسانُ العربي المعاصر، وصورتُه، يعلنان حالاً خطيرة من السلبية والخمول والجمود والتبعية، في حين تُعلن لغتُه الأصيلةُ أنه مشروعٌ قادرٌ

(١) اللغة — ج. فيندريس — تعريب عبد الحميد الدواخلى، محمد القصاص ص ٤٢١.

واعد، من نصدّق، ومن نكذّب ؟ من نحن ؟ هل نحن كما صرنا إليه حقيقة وتشويهاً؟ أم نحن ما تقوله لغتنا عنا إذ تشير إلى أصلٍ شامخٍ ذي إبداعٍ متجدّد، ومرونةٍ رحبة، وطبيعيةٍ سخية، وحوارٍ خلاّق ؟ هذا التباعد بين الإنسان العربي الحالي ولغته الأصيلة جعلها عبئاً عليه، فراح يتعامل معها كجسم غريب ناشز، أو في أحسن الأحوال كأثر تاريخي يوهم بفخر زائف . ترتب على كل هذا أن تصدى للمسألة فريقان على طرفي نقيض:

- **أحدهما** راحَ يندب حظّها، ويرثي مالها، ثم يتمادى في تثبيت مواقعها في سجون معاجمها، وكهوفِ نحوِها .

- أما **الآخر** فقد انصرف هرباً منها وهو يتخلّى عنها سرّاً أو علانية إهمالاً أو تشويهاً، حتى ظهرت تلك البثور المتقيّحة على وجهها: إما من لغاتٍ أخرى أو من لا لغةٍ أصلاً»[1].

---

(١) الأهرام - قضايا وآراء العدد ٤٢٩٨٠ - الاثنين ٩ أغسطس ٢٠٠٤

الجهل باللغة سببٌ من أسباب الانحراف

لا يقتصر أثر الجهل باللغة ومنزلتها على فقد الغيرة عليها، بل قد يكون له أثرٌ في فهم المرء ومعرفته بالدين، فكما أنّ العلم باللغة يعين على معرفة الدين، فالجهل بها سبب من أسباب الانحراف والضلال، قال ابن جني: «إن أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخفّ حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة»[١].

وقال الإمام الشاطبي ذاكراً مآخذ أهل البدع: «ومنها : تخرُّصُهم على الكلام في القرآن والسنة العربيّين مع العُرُوِّ عن علم العربية الذي يفهم به عن الله ورسوله، فيفتاتون على الشريعة بما فهموا، ويدينون به، ويخالفون الراسخين في العلم»[٢] .

وقال الأصمعي: «تزندق هؤلاء القوم لجهلهم باللغة العربية، ولو كانوا مطّلعين على خفايا اللغة لفهموا حقيقة القرآن والحديث، ولما اعتراهم الشك في الدّين».

وقال أبو عبيد : «سمعْتُ الأصمعيّ يقولُ : سمعْتُ الخليل بن أحمد يقولُ: سمعْتُ أبا أيّوبَ السِّخْتياني يقول : عامَّةُ من تزندقَ بالعراق لقلَّةِ علمهم بالعربيّة»[٣].

أردت من الأقوال السابقة الاستدلال على أهميّة اللغة لنا وخطورة شأنها ؛ لاتصالها بالدين وفهمه، وإنْ كان الانحراف العقديّ الذي ذكره العلماء في الأقوال السابقة بعيداً عنّا، لكنّ جهلنا باللغة يمكن أن يؤدّي إلى ضعف فهمنا للنصوص الفصيحة من قرآنٍ وسنّةٍ وشعرٍ ونثرٍ، ولا يخفى أنّ إدراك تفسير كلام الله عزّ وجلّ وما فيه من نظراتٍ عميقةٍ يتأبّى على قليل البضاعة من اللغة، ومثله الكلام العربيّ في كتب التراث، ولذا فالجهل باللغة يحرم صاحبه من إدراك جمالها المتمثّل في النصوص المدوّنة بها .

(١) الخصائص ٣/٢٤٥.

(٢) الاعتصام – الشاطبي ص ١٦٨.

(٣) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية - أبو حاتم الرازي ص ١٢٣-١٢٤.

قد يدفع شعور المرء بضعفه اللغويّ إلى تبرير ضعفه، أو تغطيته بأنّ اللغة أمرٌ تكميليٌّ لا يحتاجه غير المتخصّص فيها، فبسبب قلّة الوعي بأهميّة اللغة في حياة الأمّة وصلتها بحضارتها واستقلالها الحضاريّ نجد من أبنائنا من لا يرى للغة الأمّ أيّة قيمة، بل قد يظنّ أنّه لا فرق بين التزام الأمّة بلغتها أو تحوّلها إلى لغةٍ أجنبيّة .

وقد يصل الجهل بقدر لغتنا وقيمتها إلى ازدرائها والنظر إليها على أنّها لغةٌ ميّتةٌ لا تصلح للعلم والحضارة، ويقع في ذلك مَنْ جمع إلى ضعفه في اللغة وقلّة حظّه منها الانبهارَ بلغةٍ أخرى تمكّن منها أكثر من تمكّنه من لغته .

يحسن أنْ نقدّم لأولئك وغيرهم شهاداتٍ عظيمةً للغة العربيّة وقيمتها، شهاداتٌ لم تصدر من عربيٍ من أهل اللغة بل جاءت من غير العرب ممّن عرف قدر العربيّة وقيمتها، ولا شكّ أنّها من أقوى الدلائل لمن يريد المعرفة :

من أقوال غير العرب عن العربيّة :

ورود أقوالٍ لغير العرب عن عظمة العربية وصلتها بالدين تدلّ على نظرة أولئك العجم إلى لغتنا، وهي من أبرز الأدلّة على منزلة العربيّة لديهم، وفي هذا خير جوابٍ للسؤال عن أفضليّة العربية، وهي صفعاتٌ مؤلمةٌ لمن جرّدوا العربيّة من الأفضليّة .

فيما يلي أقوالٌ عديدةٌ لبعض المستشرقين عن **صلة العربيّة بالإسلام**، وأثر هذه الصلة فيها:

* قال المستشرق الأمريكي النمساوي الأصل (جوستاف جرونيباوم ١٩٠٩-١٩٧٢م): «عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ والله يقول لنبيّه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغةً تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات . وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات

واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية - إنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسّت، وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسناً "[1] .

* قال المستشرق الألماني (نولدكه ١٨٣٦- ١٩٣٠م) عن العربية وفضلها وقيمتها، وأثر الإسلام والقرآن فيها – وهو العالم باللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية واليونانية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية -: «إن اللغة العربية لم تَصِرْ حقّاً عالميةً إلا بسبب القرآن والإسلام، وقد وضع أمامنا علماءُ اللغة العرب باجتهادهم أبنيةَ اللغة الكلاسيكية، وكذلك مفرداتها في حالة كمالٍ تامٍّ، وأنه لا بدّ أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطةٌ جداً، ولكنهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمةٍ خاصّةٍ، والعربية الكلاسيكية ليست غنيّةً فقط بالمفردات ولكنها غنيةٌ أيضاً بالصيغ النحوية، وتهتمّ العربية بربط الجمل ببعضها ... وهكذا أصبحت اللغة (البدويّة) لغةً للدين والمنتديات وشؤون الحياة الرفيعة، وفي شوارع المدينة، ثم أصبحت لغةَ المعاملات والعلوم»[2].

* قال المستشرق الألماني (كارل بروكلمان ١٨٦٨- ١٩٥٦م) – وهو الحجّة في اللغات الساميّة والعديد من اللغات الأخرى -: «بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدىً لا تكاد تعرفه أيُّ لغةٍ أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها اللسانُ الذي أُحِلّ لهم أن يستعملوه في صلاتهم ...»[3] .

---

(١) الفصحى لغة القرآن - أنور الجندي ص ٣٠٦.

(٢) اللغة العربية – نذير حمدان ص١٣٣.

(٣) من قضايا اللغة العربية المعاصرة – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص٢٧٤.

* قال جاك ريسلر: «.. أضحت اللغة العربية أداة العلم الإسلامي الرئيسية وقامت في المشرق بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في الغرب.. ولم تحتلّ اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها ولكن الموقع المركزي لها بوصفها لغة الدين الإسلامي والإدارة هو الذي أدّى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية...»[١] .

* قال الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها: «يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم .. ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم»[٢]، وهذا أكبر دليل على إدراك المستعمر الصلة الوثيقة بين الإسلام والعربيّة .

ومن أقوالهم عن تميّز العربيّة ببعض الخصائص :

* قال المستشرق الفرنسي (أرنست رينان ١٨٢٣- ١٨٩٢م) – وعلمه باللغات الشرقية غير مجهول –: «من أغرب المُدْهِشات أن تنبتَ تلك اللغةُ القوميّةُ وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمّةٍ من الرُحّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرّج وبقيت حافظةً لكيانها من كلّ شائبة "[٣] .

* قال المستشرق البريطاني (ألفريد غيوم ١٨٨٨- ١٩٦٢م) عن العربية – وهو العارف بها وباللغات الشرقيّة –: «ويسهل على المرء أن يدركَ مدى استيعابِ اللغةِ العربيةِ واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسرٍ وسهولة، بوجود التعدد في تغيير دلالة استعمال الفعل والاسم... ويضرب لذلك مثلاً

(١) تراث الإسلام – تصنيف شاخت وبوزوث (سلسلة عالم المعرفة) ٨٢/٣.

(٢) مجلة المنار العدد ٩ – ١١ – ١٩٦٢م.

(٣) اتخاذ العربية لغة لتدريس العلوم في التعليم العالي – د. محمود فوزي حمد، مجلة اللسان العربي ٢٤ /٨٥.

واضحاً يشرح به وجهة نظره حيث يقول: «إن الجذر الثلاثي باشتقاقاته البالغة الألفَ عَدّاً، وكلٌ منها متّسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه، مشكّلاً من أيّ جذر آخر، يصدر إيقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن، فنحن (الإنكليز) عندما ننطق بفكرة مجرّدة لا نفكر بالمعنى الأصلي للكلمة التي استخدمناها، فكلمة (Association) مثلاً تبدو منقطعة الصلة بـ (Socins) وهي الأصل، ولا بلفظة (Ad)، ومن اجتماعهما تتألف لفظة (Association) كما هو واضح وتختفي الدالّة مدغمة لسهولة النطق، ولكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن أن يَستَتِرَ ويَسْتَدِق على المرء عند تجريد الكلمة المزيدة حتى يضيع تماماً، فوجود الأصل يظلّ بَيّناً محسوساً على الدوام، وما يعدّ في الإنجليزية محسّناتٍ بديعيةً لا طائل تحتها، هو بلاغةٌ غريزيةٌ عند العربي»[١].

* أكّد المستشرق (ريتر) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إستنبول «أن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقةٍ جديدةٍ لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا كانوا يكتبون ما أمليه عليهم من المحاضرات بالحروف العربية وبالسرعة التي اعتادوا عليها – لأن الكتابة العربية مختزلةٌ من نفسها – أما اليوم فإن الطلبة يكتبون ما أمليه عليهم بالحروف اللاتينية، ولذلك لا يفتأون يسألون أن أعيد عليهم العبارات مراراً، وهم معذورون في ذلك لأن الكتابة الإفرنجية معقّدةٌ والكتابة العربية واضحةٌ كلّ الوضوح، فإذا ما فتحتَ أيّ خطابٍ فلن تجدَ صعوبةً في قراءةِ أردأ خطٌ به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح»[٢] .

* قال المستشرق الألماني (فرنباغ): «ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العدّ، وإن اختلافنا عنهم في

(١) مقدمة مدّ القاموس – إدوارد لين – ترجمة عبد الوهاب الأمير، مجلة المورد – المجلد ٥ العدد ٢ ص ٤٣.

(٢) فنّ الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني ص٩١.

الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه حجاباً لا يتبيّن ما وراءه إلاّ بصعوبة»[1] .

* قال المفكر ارنست هو كينج: «أما اللغة العربية فهي من أجمل اللغات وأكثرها دلالة، وقد كانت مع اللاتينية في العصور الوسطى إحدى اللغتين الدوليتين في حقول العلم والسياسة والاقتصاد، إنها لغة حافظت على نقاوتها»[2].

* قال المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون ١٨٨٣- ١٩٦٢م) – وعلمه بالعربية مشهور –: «استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميّين في معالجة التعبير عن أدقّ خلجات الفكر سواءً كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها. واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفرّدت بتفرّدها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، إنّ التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنه وقف أمام تقدّم القوى المادية فلم يتطوّر ..... ثمّ ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يُعدّ معجزةً لغويةً كما قال البيروني»[3] .

وقد ذكر ماسينيون قدرات العربيّة على التعبير بقوله: " إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وإن استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل "[4].

* قال المستشرق الإيطالي (كارلو نلينو ١٨٧٢- ١٩٣٨م): «اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقاً، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها».

---

(١) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي ص ٣٠٣.

(٢) القومية العربية ودور التربية في تحقيقها – يوسف خليل يوسف ص٣٤.

(٣) السابق ص ٣٠١ -٣٠٢.

(٤) اللغة العربية وتحديات العصر ..الدكتور عبد العزيز بنعبد الله – أعدها للنشر د.محمد بولوز مدونة محمد بولوز : http://boulaouz.maktoobblog.com.

* قال المستشرق الفرنسي (وليم مرسيه ١٨٧٤-١٩٥٦م): «العبارة العربية كالعود إذا نقرت على أحد أوتاره رنّت لديك جميع الأوتار وخفقت، ثم تحرك اللغة في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصور».

* رأى المستشرق الألماني (فريتاج ١٧٨٨-١٨٦١م)- وهو العالم بالعربية والتركية والفارسية - «أن اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العدّ».

* قال المستشرق الفرنسي (ريجيس بلاشير ١٩٠٠-١٩٧٣م)، وهو اللغوي المعجمي: " اللغة العربية خلاقة وبناءة ".

* قال المستشرق الروسي الشهير (أغناطيوس كراتشكوفسكي ١٨٨٣-١٩٥١م): «أول ما نلحظه، من أول نظرة نلقيها على هذه اللغة - أي العربية - الغنى العظيم في الكلمات، والإتقان في الشكل، والليونة، والتركيب».

* قال المستشرق الألماني (كارل بروكلمان ١٨٦٨-١٩٥٦م): «معجم العربية اللغوي لا يجاريه معجم في ثرائه»[1].

* قال المستشرق روفائيل بتي - وهو الرجل الذي يجيد تسع لغات هي (العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والهندية والآرامية والعبرية والفارسية والروسية) - في كتابه The Arabes Men الصادر في سنة ١٩٧٦م في نيويورك ص ٤٨: «إنني أشهد من خبرتي الذاتية أنه ليس ثمة من بين اللغات التي أعرفها لغة تكاد تقترب من العربية سواء في طاقتها البيانية أم في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن تنفذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس تاركة أعمق الأثر فيها»[2].

---

(١) ينظر عن الأقوال الأربعة الأخيرة : اللغة العربية وآراء المفكرين الغربيين - الأستاذ إدريس بن الحسن العلمي، اللغة العربية وتحديات العصر - الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله - مجلة اللسان العربي، عام ١٩٧٦م.

(٢) مقال (العربية أفضل اللغات عقلاً ونقلاً) لعبد العزيز بن صالح العسكر، المنشور في جريدة الجزيرة الثلاثاء ٠٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ العدد ١٢٥٩٨

أحسب أنّ الباحث سيتعب قبل عثوره على أقوالٍ عربيةٍ تُشيد باللغة كإشادة هؤلاء بها، والسبب هنا واضح، فمَن اعتاد على شيء يغفل عن كثيرٍ من مواطن الجمال فيه، فالعربيّ الذي يتحدّث بالعربيّة ويقرأ بها قد اعتاد على أساليبها وخصائصها فلا يبصر كثيراً من مزاياها، وهو لا يوازنها بغيرها من اللغات، كما أنّ الإنسان يُعجَب بما عند الآخرين ويزهد بما عنده، وكما قيل: «أزهد الناس في العالم أهله»، أما الأعجميّ الدارس للعربيّة – وكثير منهم يجيد أكثر من لغة – فإنّه دقيق الملاحظة لكلّ ما تختلف فيه العربيّة عن لغته واللغات الأخرى التي يجيدها، فتراهم في كثيرٍ من أقوالهم يقفون عند خصائص تنفرد بها العربيّة عن غيرها.

ليتنا ننظر إلى لغتنا بالعين التي ينظرون بها !! إذن لاكتشفنا كثيراً من مواطن الجمال والسحر فيها، ولَكُنّا لها أفضل منّا الآن.

ثمّ ماذا بعد أن عرفنا قيمة لغتنا؟:

بعد اطلاعنا على الأقوال الكثيرة لعربٍ ومستشرقين عن تميّز العربيّة وتفوّقها على أكثر اللغات لا يستطيع مغالطٌ أو منهزمٌ أن يجادلَ في ذلك، ونحن نرى أنّ أضعف اللغات لم يفرّط فيها أهلها ولم يزهدوا فيها أو يستبدلوا غيرَها بها، لقد استطاعت أممٌ ضعيفةٌ أن تنهض بلغاتها وتجعلها لغات العلم والتعليم في كل التخصّصات.

إن التمثيل باللغة العبرية الحديثة صفعةٌ لنا !! فقد مرّ زمنٌ والعبرية في عداد الأموات، لكن عزيمة اليهود في بناء دولتهم المغتصبة، وبناء لغتهم معها لإدراكهم أهميّة اللغة في البناء الحضاري هو الذي دفعهم إلى إحيائها وجعلها لغة التعليم لديهم في كلّ العلوم.

هل لنا أن نتساءل: ما الذي جعل معرفتنا بالعربية علماً معرفياً مجرّداً في أكثر أحواله من الشعور بالاعتزاز والانتماء؟ ما الذي جعل همّ الكثير منّا هو اللهَج بحصيلته اللغوية، والتعصّب لتخصّصه اللغويّ، يدفعه إلى ذلك الهوى الذي يجعل صاحبَه لا يرى إلاّ ما يعنيه؟.

إنّ ما تواجهه العربيّة من تحدّياتٍ كثيرة، فرضها التقدّم الكبير والتغيّرات الكثيرة في كل مناحي الحياة، يستوجب النهوض بها لتكون قادرةً على الثبات أمام تلك التحدّيات، ومع ما فيها من العظمة التي أودعها الله فيها، لكنّ إبراز تلك العظمة وُكِل إلى الجهد البشريّ لا إلى معجزة ذاتيّة فيها، ولذا تضعف اللغةُ بضعف أهلها وتنهض بنهضتهم، فإن سعوا إلى نشرها والكشف عن عظمتها ظهر أثر عملهم، وإن تراخوا عن ذلك بقيت اللغة ضعيفةً جامدةً متأخّرةً عن مسايرة الحياة.

لكن الضعف الذي يصيب العربية لضعف أهلها هو ضعفٌ سببه الظروف المحيطة، فالعربية قادرة على النهوض من جديد، فخصائصها وقوتها تبقى كامنةً لا تزول لعارضٍ يصيبها؛ ذلك لأنّ تفوقها وقدرتها ذاتيةٌ بسبب قوة أنظمتها لا بسببٍ خارجي.

وعند النظر إلى أغلب لغات العالم نجد أن أهل كل لغةٍ مهما صغرت لا يفرطّون بها، بل يقفون أمام أي تغيير يُضعف لغتَهم، لأنهم يدركون صلة اللغة بالحفاظ على الهُويّة القومية، وما يتبع ذلك من الحفاظ على المبادئ التي يؤمنون بها، فكيف بنا نحن مع ما لدينا من مبادئ ذات صلة بدين الله؟ إن أقلّ ما يمكن أن نكون عليه أن نقتدي بتلك الشعوب الصغيرة في اعتزازها بلغاتها.

***

ممّن رُزئت به العربيّة فريقان:

الأول: بعض المتخصّصين فيها والدارسين لها.

والثاني: بعض المتخصّصين في غيرها ممن هو قليل العلم بها.

فالفريق الأول كثيرٌ من دارسيها والمتخصّصين فيها ممن انكفأ على نفسه واكتفى بتخصّصه، فهو لا ينقصه الكثير من العلم النظريّ باللغة، لكنّه علمٌ جامدٌ لا أثرَ له على صاحبه، فلا يدفعه إلى السعي لنشرها وخدمتها بتقريبها للمتعلّمين وتيسيرها، وإزالة مظاهر الجمود الغالبة على معلّميها، فنحن لا نشتكي من قلّة علم المتخصّصين فيها، بل من جمود الكثير منهم، وهو الجمود الذي يمنعهم من التفاعل مع التغيّرات الكبيرة السريعة في الكثير من مناحي الحياة،

ومن أهمّها حقل التعليم ووسائله، فمع الفشل الكبير في تعليم العربيّة في حصونها المتخصّصة، يقف بعضهم أمام أيّة محاولات للخروج عن النمط التقليدي في تعليمها بالاستفادة من الوسائل الجديدة المساعدة في التعليم، وبسبب ذلك الجمود من بعض متخصّصيها تخسر العربيّة الكثير، لكنّ بعض الغيورين عليها من غير المتخصّصين قد يخدمونها ويُسهمون في نشرها أكثر من متخصّصيها .

في هذا الوقت تملي علينا الغَيرة على لغتنا أن نبحث عن أسباب ضعفنا فيها وضعفنا في تعليمها، ثمّ نسعى إلى علاج هذا الضعف ولو بإعادة النظر في مناهجها وأساليب تعليمها، على ألاّ نبالي كثيراً بما نسمعه من صراخٍ ظاهرُه الخوفُ على العربيّة من رياح التغيير، لكنّ حقيقتَه التخوّفُ من رياح التغيير أن تقتلع الجامدَ منّا، فخوف الكثير منّا ليس حفاظاً على العربيّة بل حفاظٌ على مكتسباته أن ينالها التغيير.

إنّ العديد منّا لا يعنيه النجاح في تعليم اللغة أو الفشل فيه، فهو ينظر إلى تعليمها على أنه وظيفةٌ يؤدّيها، لكنّه يقف أمام أيّ أمرٍ يمسّ مصلحته وإنْ كان فيه ارتقاءٌ باللغة وتعليمها .

إنّ الإصرار على التمسّك بالنمط التقليديّ في تعليم العربيّة - وهو القائم على التلقين النظريّ لقواعدها وعلومها الأخرى – يدفع إليه شعورٌ بعضنا بضعف تأهيله مع كسله عن السعي إلى اكتساب أساليب جديدة ووسائل نافعة في التعليم، فلم يأخذ من العلوم الأخرى ما يُعينه على إجادة تخصّصه، كلّ هذا زاد انصرافَه عن الشعور باللغة شعوراً يدفعه إلى السعي للارتقاء بها وبسطها للناس وتقريبها إليهم، وإبراز خصائصها المشرقة الجميلة لهم .

لا عجبَ أن نرى متخصّصاً في العربيّة، لا تعدو صلتُه بتخصّصه حدودَ ما يجب عليه من تعليمٍ لها، فتراه منكفئاً على أداء واجب تعليمها دون النظر في نتيجة عمله نجاحاً كانت أو فشلاً . بل إنّ من المتخصّصين من أصبح ضرراً على تخصّصه وعائقاً من عوائقه ؛ بتعصّبه لما هو عليه من جمود، ووقوفه أمام أيّ تغييرٍ إيجابيّ في دراسة اللغة أو معالجة مشكلاتها، بل بالغ بعضهم في التعصب لرأيه أو لهواه حتى قاربَ أو تفوّقَ على بعض المحاربين للغة في إعاقتها والإسهام في جمودها .

والفريق الثاني بعض متخصّصي العلوم الأخرى ممن هو قليل البضاعة من العربية، وهو ما يؤدّي به عند خوضه في بعض المسائل اللغوية إلى سوء فهمه لبعضها، ثمّ الخروج بنتائج غير سليمة، ثمّ يدفعه الاعتزاز برأيه إلى المكابرة لكيلا يعترف بخطئه، فهو ينافح دون رأيه ولو كان بالمبالغة والتهويل لمسائل لا تستحقّ ذلك، بل قد يقع في إثارة الشُبَه والاحتجاج لها بأضعف الحجج، ويصبح همّه معلقاً بالغرائب والنوادر من المسائل، وهو ما يوجِد لديه الرغبة في الإثارة عند العثور على قضيّة علميّة تخالف المشهور، وبسبب عدم تخصّصه في اللغة يضطرّ المتبنّي للمسألة المطروحة إلى الاحتجاج لها والاعتداد بها والانتصار لما طرحه، وكان الأولى توفير ذلك الجهد لما يستحقّ من مسائل اللغة الجديرة بالطرح، وخير مثالٍ على ذلك مسألة أفضليّة العربيّة التي أشرت إليها فيما مضى.

وقد يؤدي شعور المرء بقصوره في علوم العربية وضعفه إلى أن يكون جداراً تصطدم به قضايا العربية المعاصرة، فيصبح عائقاً من عوائق اللغة، فجهله يحرمه من إبصار ما يبصره العارفُ باللغة، ويمنعه الاعتزازُ بنفسه من ظهور جهله للناس، فهو لا يريد إزالة جهله بالازدياد من علوم اللغة بل يريد البقاء على ما هو عليه . ولا يقتصر هذا الموقف على الجاهل باللغة، بل كل امرئ يجهل علماً من العلوم ثمّ يخوض فيه فإنّ نتيجة ذلك تكون قريبة مما ذكرت .

لا يشكّ ناظرٌ في بعض المواقف المتشنّجة من اللغة والمضخّمة لبعض قضاياها أنّ للجهل بها أثراً قويّاً على صدور بعض المواقف التي تبدو غريبةً من أصحابها !! ولا يخفى أنّ من الناس من يكون إتقانُه وعلمُه باللغة الأجنبيّة - كالإنجليزيّة مثلاً - أفضلَ من معرفته بالعربيّة، وهي لغته الأمّ، فإذا كانت دراسته للعربيّة اقتصرت على مراحل التعليم العامّ، وهي دراسة ضعيفة، فلا عجب بعد ذلك وقد أعدّ شهاداته العالية - كالماجستير والدكتوراه - أن يبدو أكثر إعجاباً بما يتقنه من لغة، ويأتي شعوره بضعفه في لغته سبباً لوقوفه مواقف تُظهر عدم اهتمامه بها، أو تبنّيه مواقف تبدو شاذّةً بسبب جهله بما يخوض فيه .

قال أديب العربيّة مصطفى صادق الرافعي مصوّراً حال أولئك القوم: «والذين يتعلّقون اللغاتِ الأجنبيةَ ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلّق إنْ لم تكن عصبيتهم للغتهم قويّةً مستحكِمةً من قِبَل الدين أو القومية، فتراهم إذا وهنَت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميّتهم، ويتبرؤون من سلَفِهم، وينسلِخون من تاريخهم، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم، وآداب لغتهم، ولقومهم وأشياء قومهم، فلا يستطيع وطنهم أن يوحيَ إليهم أسرارَ روحه، إذْ لا يوافق منهم استجابةً في الطبيعة، وينقادون بالحبّ لغيره، فيتجاوزونه وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم، ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبيّ ؛ ومن ثمّ تصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهّم فيها لا بالحقيقة التي تحملها ؛ فيكون شيء الأجنبيّ في مذهبهم أجملَ وأثمنَ، لأنّ إليه الميلَ وفيه الإكبارُ والإعظام؛ وقد يكون الوطنيُّ مثلَه أو أجملَ منه»[1] .

أحسب أنّ الرافعي قد أحسن تصوير موقف بعض أولئك، ولن نجد صعوبةً في رؤية هؤلاء من أبناء المسلمين ممّن جمع إلى جانب جهله بلغته وفقدِ الاعتزاز بها الانبهارَ بالأجنبيّ وما يتّصل به من لغةٍ وحضارةٍ وفكر، وهو ما يُشعره بالنقص ومعاداة ما يجهله .

ويأتي كلام أحمد بن محمد مسكويه في جوابه سؤالَ أبي حيان عن سبب ذمّ الإنسان ما لم ينلْه وتهجينه ما لم يحزْه مناسباً للاستشهاد به هنا، فقد قال مسكويه: «هذا من قبيح ما يعتري الناس من الأخلاق، وهو جارٍ مجرى الحسد، وذاهبٌ في طريقه، وصاحب المثل الذي يقول : المرءُ عدوٌّ ما جهل، إنما أخرجه مخرج الذمّ والعيب، كما قيل : الناسُ شجرةُ بغيٍ وحسد، والسبب : فيه محبة النفس أولاً، ثم الغلط في تحصيل ما يزينها»[2] .

ويمكنني التمثيل بالدعوة إلى تعريب الطبّ للدلالة على أثر الجهل باللغة والبعد عنها في تبنّي المرء مواقفَ تبدو مضادّةً للغة، ففي هذه المسألة تبدو مواقف الأطباء من تعريب الطبّ على فريقين:

---

(١) وحي القلم ٣ /٢٩-٣٠

(٢) الهوامل والشوامل – أبو حيان التوحيدي، مسكويه ص ١٨٩

الأول : مَنْ تبنّى الدعوة إلى تعريب الطبّ – أي تعليم الطبّ بالعربيّة – اقتناعاً منهم بذلك، وهو جمعٌ غير قليل من الأطبّاء.

والثاني: من وقف سدّاً ضدّ تعريب الطبّ ؛ اعتماداً على عدّة مبرّرات، ومع ما لديهم من الأسباب والحجج لموقفهم فإنّ من أسباب اتّخاذهم ذلك الموقف – في رأيهم – أنّ اللغة العربيّة غير قادرة على مجاراة التطوّر السريع في علوم الطب باللغات الأجنبيّة، سواء كان عدم القدرة ضعفاً ذاتيّاً في اللغة، أو لضعف أهلها في تطويرها، والحقّ أنّ ضعف الثقة في العربية أو انعدامها لديهم من أكبر الأسباب الحقيقيّة لموقفهم ذلك، ولا يُنتظر من مثلهم أن يكونوا على غير ذلك الموقف، فكما قيل : فاقدُ الشيءِ لا يعطيه .

مع نجاح تعريب الطبّ في بعض البلاد وبالأخصّ في سوريا فإنّ فريقاً كبيراً من الأطباء في بلادنا ما زالوا يستهجنون هذه الدعوة ويرفضونها، وتبدو التجارب في تعليم الطبّ بالعربيّة غير كافيةٍ لإقناع ذلك الفريق الذي تلقّى تعليمه الطبّي بلغةٍ أجنبيّة، فهو غير قادر على قبول تعليمه بلغة قومه ؛ بسبب ما يعرفه عن نفسه من الضعف فيها، إلى جانب عدم ثقته بها وبقدرتها ... والحديث يطول حول هذه المسألة لكنّي أدرك أنّ أمر تعريب الطبّ – مع قدرة العربيّة على استيعاب العلوم التطبيقيّة – يحتاج إلى استعداد وتخطيط دقيق، فهو يحتاج إلى حملةٍ للترجمة لا تتوقّف، إلى جانب ضرورة العناية باللغة الأجنبيّة لدوام الاتصال بالميدان الطبّي المتجدّد .

لسعة هذا الموضوع أورد بعض النقاط التي تدلّ على صحة رأي من يدعو إلى تعريب الطبّ :

* تدريس أكثر الأمم الطبَّ والعلوم التطبيقية بلغاتها الأصليّة مع ضعف لغاتها وقلة المتحدثين بها، فلغاتها لا تداني العربيّة في خصائصها، بل هي لغاتٌ صغيرةٌ، ومن تلك البلاد: إندونيسيا، فيتنام، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، الدانمرك، فنلندا، اليونان، أيسلندا، إيران، إسرائيل، إيطاليا، اليابان، منغوليا .. وسيأتي جدولٌ بأسماء الدول التي تدرّس الطبّ بلغاتها .

* جعلت الأمم المتحدة اللغةَ العربيةَ إحدى اللغات الستّ المعتمدة لديها إلى جانب (الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والروسية، والصينية)، وهو دليل على الاعتراف العالميّ بالعربيّة .

* أوصت منظمة "اليونسكو" باستخدام اللغة الوطنية لكل بلد في التعليم إلى أقصى مرحلة ممكنة، إذا كانت اللغة تسمح بذلك، وهو دليلٌ على أنّ التعلّم باللغة الأمّ أقوى تأثيراً من لغةٍ أجنبيّة .

* نجاح تجربة تعليم الطب بالعربية في سوريا، وهي تجربة مشهود لها بالنجاح بناء على دراسات علمية .

* أثبتت دراسات علميّة على كتب تعليم الطب بالإنجليزية أنّ المصطلحات العلمية لا تتعدّى ٣٪ تقريباً من لغة الكتاب، والباقي شرح يمكن أن يُؤدّى بأية لغة(١) .

تلك النقاط إشاراتٌ مختصرةٌ إلى بعض مبرّرات من يدعو إلى تعريب الطبّ، ومع أنّ هذا الموضوع كبيرٌ فقد أُلّفت المؤلفات والبحوث العلميّة حوله، ولم يتبنّ الدعوة لغويّون وحدهم، بل يتحمّس لها عددٌ غير قليل من الأطباء العرب من بلادٍ عربيّةٍ مختلفة(٢)، فهم يؤمنون أنّ لغتهم العربيّة حقّها كحقّ بقيّة اللغات الأخرى التي يدرس أهلها الطبّ بها، بل يؤمن الكثير منهم بعظمتها وتفوّقها على أغلب اللغات .

---

(١) قام الدكتور : زهير أحمد السباعي (أستاذ طب الأسرة والمجتمع بكلية الطب بجامعة الملك فيصل) والدكتور ماجد عثمان (الأستاذ بكلية العلوم الاقتصادية والإدارية بجامعة الإمارات) بدراسات علمية كان من نتائجها أن نسبة المصطلحات الطبية في عشرة من كتب الطب الإنجليزية لا تزيد عن ٣,٣ ٪ من مجموع الكلمات .

(٢) يمكن الاطلاع على قوائم عديدة لأطباء ومتخصصين في علوم تطبيقية أخرى من المهتمّين بالتعريب في موقع (مركز تعريب العلوم الصحية) www.acmls.org، وهو منظمة عربية منبثقة عن مجلس وزراء الصحة العرب التابع لجامعة الدول العربية، أنشئت عام ١٩٨٠ ومقرها الدائم دولة الكويت، كما يمكن الاطلاع على قائمة المشتركين في شبكة تعريب العلوم الصحية "أحسن" التابعة للمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية :
www.emro.who.int/ahsn/Membership.htm
ويتضح من هاتين المجموعتين الأعداد الكبيرة من الأطباء والأساتذة الداعين إلى تعريب الطب.

إنّ النظر في إحصائية منظمة الصحة العالمية، الخاصة بلغات التعليم الصحي والطبي يأتي دليلاً قوياً على أنّ اعتزاز الأمّة بلغتها وتمسّكها بها من أعظم عوامل نهضتها واستقلالها، فالإحصائية تكشف عن أنّ أغلب دول العالم – باستثناء الدول العربية – تعلّم الطبّ بلغاتها مهما كانت ضعيفة، وهي أمثلة حيّة على اعتزاز الأمم بلغاتها .

وسأورد بعضاً ممّا جاء في الإحصائية من أسماء بعض الدول، مع عدد كليات الطب فيها، ولغة التعليم فيها، لنرى لغاتٍ لا تعدو كونها لغاتٍ لبلاد ضعيفة متخلّفة، لكنّ ذلك لم يمنعهم من تدريس الطبّ بها :

نماذج للغات التعليم الصحي والطبي في العالم

الدولة	عدد كليات الطب	لغات التعليم
أفغانستان	٢	الداري في كلية طب كابول
		الداري والبوشتو في كلية طب جلال أباد
ألبانيا	١	الألبانية
أنجولا	١	البرتغالية
الأرجنتين	٩	الأسبانية
النمسا	٣	الألمانية
بلجيكا	١١	الهولندية أو الفرنسية
بنين	١	الفرنسية
بوليفيا	٣	الأسبانية
البرازيل	٧٦	البرتغالية
بلغاريا	٥	البلغارية
شيلي	٦	الأسبانية
تشيكوسلوفاكيا	١٠	التشيكية أو السلوفاكية

الدولة	عدد كليات الطب	لغات التعليم
كوريا الديمقراطية	١٠	الكورية
الدانمرك	٣	الدانمركية
فنلندا	٥	الفنلندية والسويدية
اليونان	٦	اليونانية
أيسلندا	١	الأيسلندية
إندونيسيا	١٤	الإندونيسية
إيران	١٨	الفارسية وكذلك الإنكليزية
إسرائيل	٤	العبرية
إيطاليا	٣١	الإيطالية
اليابان	٨٠	اليابانية
مدغشقر	٢	الفرنسية والملجاشية
ماليزيا	٣	البهاسا ماليزيا والإنكليزية
منغوليا	١	المنغولية والروسية
موزمبيق	١	البرتغالية

الدولة	عدد كليات الطب	لغات التعليم
هولندا	٨	الهنولدية
النرويج	٤	النرويجية
البرتغال	٥	البرتغالية
رومانيا	٦	الرومانية
الصومال	١	الصومالية والإيطالية
السويد	٦	السويدية
سويسرا	٥	الألمانية والفرنسية
سوريا	٣	العربية (وبعض المواد بالإنكليزية أو الفرنسية)
تركيا	٢٢	التركية
روسيا	٨٧	الروسية (وكذلك باللغات المحلية)
يوغوسلافيا	١١	الصربية والكرواتية والسلوفينية والألبانية والمقدونية

مصدر الجدول : المنظور اللغوي لمواكبة الحضارة - الدكتور/ محمود محمد عز الدين قاسم، مدرس الجراحة بكلية طب قصر العيني - دكتوراه الجراحة العامة، ، موقع العرب نيوز :

http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/١٠-٠٥-٢٠٠٢/Qasem.htm

ما سبب خنوعنا وضعفنا نحو لغتنا ؟:

تتشابك مجموعة من الأسباب التي أدّت إلى ضعف قَدْر العربيّة في نفوسنا قبل أن تضعف في واقع حياتنا ، ومع الحاجة إلى دراسة عميقة لمعرفة الأسباب الظاهرة والكامنة لذلك، لكنّي هنا أذكر بعضاً منها :

*** الانحراف في تعليمها:**

فقد أصبح تعليمها تعليماً لقواعد اللغة لا للغة نفسها ، فالفشل الكبير في مستوى دارسيها أكبر دليل على ذلك الانحراف، والاكتفاء بدراسة قواعدها نظرياً دون تطبيقٍ خرّجَ مَنْ يعرف قواعدها دون القدرة على استخدامها في الكلام، وهذا الأمر لم يعُدْ سرّاً مكتوماً بل أصبح أمراً مشاهداً ؛ فنجد العديد ممّن يحمل مؤهلاً عالياً في اللغة العربيّة، ومع ذلك نجده لا يحسن أضعف المهارات اللغويّة، من حديثٍ بالفصحى أو كتابةٍ بها ، وهو دليلٌ على أنّ علمه بقواعدها علمٌ نظريّ .

وموضوع الضعف باللغة أُشبع بالدراسات المتعدّدة وعُقدت له الندوات المتخصّصة، ولم نعدْ بحاجة إلى حلول نظريّة فهي معروفة، لكنّنا بحاجة إلى نقل تلك الحلول إلى أرض الواقع، وأن تكون العزيمة صادقة للتغيير، ولذا فيكفي أن نتذكر هنا أنّ الفشل في تعليمها يؤدّي إلى ضعف اللغة في نفوس أهلها علماً وقدراً وانتماءً .

قالت عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): " يبدو لي أن عقدة الأزمة ليست في اللغة ذاتها، وإنما هي في كوننا نتعلم العربية قواعدَ صنعة وإجراءاتٍ تلقينية، وقوالبَ صمّاء، نتجرعها تجرعاً عقيماً، بدلاً من أن نتعلمها لسانَ أمّةٍ ولغةَ حياة .

وقد تحكّمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة، فأجهدت المعلم تلقيناً والتلميذَ حفظاً، دون أن تجدي عليه شيئاً ذا بال في ذوق اللغة ولمح أسرارها في فنّ القول، وانصرف همّنا كلّه إلى تسوية إجراءات الصنعة اللفظية، بعيداً عن منطق اللغة وذوقها[1].

---

(١) لغتنا والحياة — د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" ص ١٩٦

*** جهل بعض أبنائها بها وضعف ولائهم لها:**

وأكثر ما يكون ذلك ممّن يجهلها ويجهل قيمتها، من المتخصّصين في علوم أخرى، والإنسان عدوّ ما جهل كما سبق، ولا شكّ أنّ من أسباب ذلك الضعف ضعفُ مناهج تعليمها وتقصير متخصّصيها في تقريبها للناس.

من العجب أن يكون بعض الذين يدركون ضعفهم في العربية يحاولون ستر ضعفهم بالتقليل من قيمة العربية أو فضلها بدل سعيهم للازدياد منها، فهم بذلك يحافظون على أنفسهم، فهم يرتكبون تقصيراً كبيراً بحقّها.

هذا حالهم إنْ كان أمرهم جاء من الجهل بلغتهم، أمّا إنْ جمعوا إلى ذلك إعجاباً وميلاً إلى لغةٍ أجنبيّةٍ مع الانبهار بحضارتها وفكرها فحالهم كما صوّرها الرافعي بقوله: " وأعجبُ من هذا في أمرهم أنّ أشياء الأجنبيّ لا تحملُ معانيَها الساحرةَ في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءها الأجنبيّة، فإنْ سُمّي الأجنبيّ بلغتهم القوميّة نقصَ معناه عندهم وتصاغَر وظهرت فيه ذلّة ... وما ذاك إلا صِغَر نفوسهم وذلّتها، إذْ ينتخون لقوميّتهم فلا يلهمُهم الحرفُ من لغتهم ما يُلهمهم الحرف الأجنبيّ.

والشرقُ مبتلى بهذه العلّة، ومنها جاءت مشاكله أو أكثرها، وليس في العالم أمّةٌ عزيزةُ الجانب تقدّم لغةَ غيرها على لغة نفسها، وبهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبيّة موضعاً إلا من وراء حدود الأشياء الوطنيّة، ولو أخذنا - نحن الشرقيّين - بهذا لكان وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا "[1].

*** أسبابٌ خارجيّةٌ:**

تتمثّل في إدراك الأعداء أثر اللغة على الأمّة في الحفاظ على هُويّتها، فهم أدركوا اختلاف العربيّة عن غيرها من اللغات لارتباطها بالدين بمصادره المتعدّدة، وما الدعوات العديدة التي هوجمت بها العربيّة – كالدعوة إلى العاميّة، وكتابة العربيّة بالحروف اللاتينيّة وغيرها - إلا إحدى صور الحرب عليها، إلى جانب ما نشهده من السعي إلى إزاحة الفصحى عن وسائل الإعلام في الفضائيات، وغيرها من الصور العديدة.

---

(١) وحي القلم ٣/ ٣٠

وللدلالة على إدراك الأعداء أثر العربيّة على حياة المسلمين في وقت مبكر من صور الاستعمار الحديث للعالم الإسلامي، أورد الدليل التالي :

فقد ذكر **العالم الإنجليزي ج. هـ. جانس** في كتابه : "الإسلام الحربي" أنه عندما كان الإنكليز والفرنسيون يستعدون في مطلع القرن العشرين لجعل المنطقة التي تسيطر عليها، أو التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية مناطقَ نفوذٍ خاضعةٍ لسيطرتهما واستعمارهما، أجرت كل من إنكلترا وفرنسا بحوثاً عن أسباب قوّة وصلابة الإنسان العربي التي مكنته من فتح البلاد المحيطة به من الهند وتخوم الصين إلى المحيط الأطلسي، فوجدت أن أهمّ سبب لذلك هو طريقة تعليم الطفل العربي : فهو يتعلم القراءة والكتابة قبل سن الخامسة، ويختم القرآن الكريم الذي يحتوي على أهمّ وأفصح التراكيب اللغوية فيتقنه وعمره لا يزيد على السادسة، ثم يستكمل إتقانه للغته فيما بعد لدى تعلمه قواعد نحوها وصرفها وترسخها في ذهنه بحفظ ألفية ابن مالك، وبذلك يتفوّق الطفل العربي على الطفل الغربي، والفضل في ذلك كله يعود إلى نوع التعليم الأولي الذي يوفره الكتاب.

لذلك خطّط الإنجليز والفرنسيون ما يلي :

في البلاد الخاضعة للحكم الإنجليزي إضعاف صفة الكُتّاب بجعله مقصوراً على أبناء الفقراء، وإنشاء مدارس حكومية حديثة للطبقة المتوسطة يدخلها الأطفال بعد سن السادسة، وإنشاء مدارس أجنبية لأولاد الأغنياء يكون تدريس اللغة العربية فيها ضعيفاً إن وُجد، بغية تكوين طبقة يمكنها التعامل مع الأجنبي المحتلّ، لكنها تصبح غريبة عن كل من المجتمع الذي تعيش فيه والطبقة التي تشبه بها في الغرب مما يجعلها دائمة الشعور بالنقص، وبذلك يضمن المحتلّ ولاء هذه الطبقة له والاعتراف له بالسيادة، أما البلاد الخاضعة للحكم الفرنسي فقد كانت أسوأ حظاً إذ أنها مُنعت من تدريس اللغة العربية في مدارسها العامة، وبذلك كادت اللغة العربية تتلاشى من الوجود في تلك البلاد أثناء الاحتلال الفرنسي[١] .

---

(١) بحث (المنظور اللغوي لمواكبة الحضارة) - الدكتور/ محمود محمد عز الدين قاسم، مدرس الجراحة بكلية طب قصر العيني - دكتوراه الجراحة العامة، موقع العرب نيوز :
http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/١٠-٠٥-٢٠٠٢/Qasem.htm

أنعجبُ بعد ذلك من سوء حال لغتنا مع معرفتنا بضعف تعليمها لدينا، وضعف علمنا بها، وضعفها في نفوسنا مع سعي الأعداء إلى إضعافها في واقعنا وفي نفوسنا؟!

إن النظر إلى اللغات الأخرى وحال أهلها معها يكشف لنا مدى التقصير الكبير الذي نقوم به تجاه لغتنا العظيمة.

مظاهر تقصير متخصصي العربيّة:

يُلام على سوء واقع العربيّة لدينا أقربُ الناس إليها، دارسوها والمتخصّصون فيها، فعليهم مسؤوليّة كبيرة؛ لكونهم أعلمَ الناس بها وبقَدْرها وخصائصها، وتقصيرهم بحقّها لا يمكن تبريره؛ فما يبذلونه في سبيل ذلك قليل جداً، بل إنّ بعضهم – وهم متخصّصون فيها – لا تعدو صلتهم بها القيام بالعمل المطلوب منهم لتعليمها، لكنّهم يفقدون الشعور بأهميّتها والاعتزاز بها والسعي إلى النهوض بها، بل ربما لا يبصر الحال السيّئة التي وصلت إليها.

فيما يلي بعض مظاهر تقصير المتخصّصين بالعربيّة:

الأول: التعصّب الذي يصيب بعض دارسي العربيّة، ليصبح همّه الدفاع عن تخصّصه أمام متخصّصي علوم اللغة الأخرى، لا أمام أعدائها الساعين إلى هدمها!! فتراه ينظر إلى التخصّصات الأخرى نظرة الريبة والاحتقار، وقد نسيَ أنّ اللغة ليست قواعد مجرّدة تُحفظ ولا يُقاس عليها، ويُكتفى بترديدها بعيدةً عن تطبيقها!! كما نسيَ أنّ اللغة وَحْدةٌ واحدةٌ تترابط أجزاؤها معاً لتكوّن النسيج اللغويّ المطلوب، فعلوم العربيّة لا ينفكّ بعضها عن بعض، من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ وبلاغةٍ وأدبٍ وغيرها، وهذه العلوم حينما استقلّت لم تستقلّ لاستقلال نصيبها من اللغة، بل للتعمّق في دراستها والتأليف فيها، لكنّها لا تتفرد باللغة دون أخواتها، ما أعنيه هنا أن اللغة مجموعةٌ من الأنظمة المترابطة التي تتعاضد في ظهور النصّ اللغويّ الكامل، وعليه فلا يمكن انفراد بعضها عن بعض.

وللتمثيل على ما أقول فإن النحو العربي يظهر شامخاً أمام قواعد اللغات الأخرى في دقّته وشمول قواعده وقياسيّة الكثير منها، وتعدّد أنماط التراكيب بتعدّد ضروب الكلام، لكن النحو لا ينفكّ متصلاً بالعديد من علوم اللغة الأخرى، وبقدر

ما يكون المزج بين النحو والعلوم الأخرى بارزاً في نشاطٍ من الأنشطة اللغويّة تكون الثمرة أنفع، وحينما يظهر النحوُ قواعدَ مجردةً فإنه يظهر جامداً .

إن التطور الحضاري في جانبه التقني خاصة يدلّ دلالة أكيدة على أهمية علوم اللغة جميعاً، فنحن نرى في علم اللغة الحاسوبي دور قواعد النحو في إنشاء برامج حاسوبية تضبط الكتابة العربية اعتماداً على تعريف الحاسب بتلك القواعد، ومن تلك البرامج المشكّل الآلي، وبرامج الإعراب ... كما نشهد أثر قواعد الصرف في تعريف الحاسب بأنظمة العربية في بناء اللفظة والاشتقاق منها، ومن تلك البرامج المحلّل الصرفي والقواعد الصرفيّة .

ولا يخفى الجانب المعجمي وأثره الكبير في بناء معاجم حاسوبية لأغراض مختلفة .

وفي جانب أصوات اللغة تأتي أهمية قواعدها في الوصول إلى تعريف الحاسب بخصائص الصوت البشري، وما نتج عنه من برامج لنطق النصوص العربية المحفوظة في الحاسب بصوتٍ بشري، وبرامج للتعرف على الصوت البشري وتحويله إلى نصوص حاسوبية .

ولا يخفى علينا أنّ علماء العربيّة لم ينظروا إلى العربيّة تلك النظرة، أعني نظرة التعصّب لعلمٍ من علومها، فكثيرٌ منهم كان نحوياً عالماً بالبلاغة والأدب واللغة، بل إنّ الكثير من أمّهات كتب اللغة الأولى كانت تشتمل على كلّ هذه العلوم مجتمعة.

إن التعصب المقيت جعل من بعض متخصّصي العربية منفّرين عنها وعن دراستها، يدفعهم إلى ذلك الحفاظ على تخصصهم ومكانتهم فيه، ولذا فهم يضحّون بصالح اللغة للحفاظ على مكتسباتهم، ولو كان في ذلك تفويت مصالح كبيرة للغتنا .

كما أدّى التعصّب ببعضهم إلى أن يقف حجرَ عثرةٍ أمام العديد من محبّي العربيّة والساعين إلى دراستها، لكونهم ينظرون إلى اللغة نظرة تستحضر واقع اللغة السيّئ مع التغيّر الحضاري الكبير، وما يستدعيه ذلك من إعادة صياغةٍ للكثير من أساليب تعليم العربية .

إنّ التعصّب حينما يقع بين متخصّصي علمٍ من العلوم فإنّه يقف حجر عثرةٍ أمام الإبداع في ذلك التخصّص، ولعلّ ما نراه من قصورٍ في ميدان تعليم العربيّة جاء كثيرٌ منه بسبب التعصّب والجمود اللذين يتصف بهما بعض متخصّصيها، وهو ما يمنعهم من العمل المثمر.

الثاني: ضعف بعض المتخصّصين في التفاعل مع واقع اللغة المتغيّر، فهو قد تعلّم اللغة على نمطٍ تقليديّ يعتمد على حفظ القواعد مع أمثلتها، لكن جانبه الأضعف هو القدرة على التطبيق، ولشعوره بضعفه ووجود فجوة بينه وبين ما يجب أن يكون عليه تراه يبدو شديد الفتور حيال قضايا تحتاج إلى التفاعل معها وبذل الجهد لحلّها، بل إنّ منهم مَنْ يبدو أضعف من غير المتخصّصين ممّن يحمل الغيرة على اللغة ببذل جهودهم في نشرها والدفاع عنها.

ليس عيباً أن يشعر الإنسان بجانب النقص لديه ويسعى إلى سدّه وبذل الجهد فيه، لكنّ العيب أن يعرف النقص لديه ثمّ لا يسعى إلى تعويضه وسدّه باكتساب ما ينقصه، بل إنّ الشعور بالنقص أحياناً يجعل صاحبه عائقاً من عوائق العمل البنّاء، وكم من لغويٍّ أضرّ بالعربيّة أكثر ممّا نفعها، فنفّر الناس بجموده وتعصّبه في تعليمه، فالهدف من التعليم لديه حفظ القواعد دون النظر إلى نتيجة تعليمه، أمّا الجوانب الحيويّة في اللغة فلا يعير لها اهتماماً أو تفاعلاً !!

فهل نعجب بعد ذلك إذا فشلنا في تعليم العربيّة ؟!

الثالث: فشلُنا في تعليم العربيّة لا تعليم قواعدها ! فقواعد العربيّة شأنها شأنُ غيرها من قواعد اللغات لا قيمة لها إنْ لم تُتعلّم لتطبيقها في الكلام، ونحن حينما ننظر إلى واقع تعليم العربيّة نوقن أنّ كثيراً من الضعف فيها جاء لأنّ القواعد تُدرّس تدريساً نظريّاً دون تطبيق، فترى الطالب ينهي دراسة قواعد اللغة لكنّه لا يستطيع الالتزام بها في كلامه أو كتابته ؛ لأنّه لم يتعوّد على ذلك، ولذا فنحن نعلّم قواعد اللغة لا اللغة نفسها ! وحريٌّ بنا أن نجمع بين العلم بقواعد اللغة وتطبيقها.

لعلّ نظرةً إلى ميدان تعليم العربيّة لغير العرب يؤكّد أنّ الجمود يمكن أن يقعد بتعليم العربيّة؛ فنحن نلحظ التطوّر الواضح في ميدان تعليم العربيّة لغير العرب،

بينما نراه جامداً يراوح مكانه منذ أمدٍ بعيدٍ في ميدان تعليم العربيّة للعرب، فتعليمها لغير العرب يأتي حرّاً مرِناً غير قابلٍ للجمود ؛ ذلك أنّه يعتمد في كثيرٍ من جوانبه على نظرياتٍ وتجاربَ لتعليم اللغات الأخرى، ولذا فهو يأتي من خبراتٍ متراكمةٍ للغويّين من لغاتٍ مختلفة، كما أنّ اختلاف مشارب المتخصّصين في هذا الميدان في انتمائهم إلى مدارس مختلفة لا يترك للجمود والتعصّب مكاناً، فهم يعملون في بيئةٍ سليمةٍ في أكثر جوانبها، والتميّز والاختلاف بينهم لا يؤدّي إلى صراعاتٍ وإعاقات، وفي جانب النتائج نلحظ النجاح الكبير في تعليم الأعجميّ اللغة واجتيازه مستويات فيه، مع كونها لغةً غريبةً عنه .

أمّا في ميدان تعليم العرب وبسبب نمطيّة التعليم السائدة فإنّ غالبيّة المنتمين إلى هذا الميدان يتّفقون في مناهجهم ومشاربهم، وهو ما يؤدّي إلى التشابه بينهم، وقلّة السعي إلى تغيير السائد في هذا الميدان، وهو ما يبعث على الركون إلى الواقع والاكتفاء به، وفي الغالب أنّ محاولات إعادة النظر في المناهج أو تغيير الأنماط السائدة في التعليم تصطدم بصخرة الجمود، أمّا في جانب النتائج فنتائج تعليم العرب لا تضاهي تعليم غير العرب ؛ فمع أنّ الدارسين هنا يدرسون لغتهم الأمّ، لكنّ نسبة إجادة ما درسه الطالب لا تقارب إجادة زميلة الأعجميّ، وهو دليلٌ قويّ على أنّ تعليم اللغة يعتمد على تفعيل قواعد اللغة وأنظمتها بالانتقال من النظريّة إلى التطبيق، لا على حشو عقل الطالب بتفصيلاتٍ لغويّةٍ لا تزيد ملكته في الحديث والكتابة إلاّ بمقدار تدريبه على تطبيق تلك الملكات .

وما ذكرته لا ينفي وجود مبدعين متقنين من دارسي العربيّة من أبنائها، ساعدتهم قدراتهم الشخصيّة على سرعة التلقّي والإتقان وسدّ الثغرات في دراسته، أمّا عند النظرة العامّة إلى الدارسين في الميدانين : تعليم العربيّة للعرب، وتعليمها لغير العرب، فإنّنا نلحظ ما ذكرتُه من ضعفٍ جليّ في ميدان تعليم العرب للغتهم، وتفوّقٍ في تعليمها لغير العرب، مع ضرورة ملاحظة الفرق بين الميدانين، سواء في اختلاف الدارسين، أو في اختلاف المناهج وأهدافها .

وممّا يمكن أن يكون له أثرٌ إيجابيّ في معالجة واقع لغتنا السيئ أن نأخذ العبرة وننظر في تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها، ولا شكّ في أن الاطلاع على التجارب الأخرى يشحذ الهمم ويبصّرنا بمدى تقصيرنا، وفيما يلي ذكرٌ لثلاث تجارب لثلاث أمم :

الأولى: أيرلندا : رزحت أيرلندا تحت الاحتلال الإنجليزي منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وذاقت منه الويلات خصوصًا على يد "كروميل" الذي أعمل السيف في رقاب الأيرلنديين، وشحن عشرين ألفًا من شبابهم وباعهم عبيدًا في أمريكا ونفى أربعين ألفًا خارج البلاد، وتمكن من طمس هويتهم بمحو لغتهم الأيرلندية، وتذويبهم في المجتمع البريطاني، ولما حاول بعض الأيرلنديين الوطنيين النهوض من جديد أدركوا أن هذا لا يكون ما دامت لغتهم هي الإنكليزية، وما دام شعبهم يجهل لغته التي تميز هويته، وتحقق وحدته.

وقُدّر لهم معلمٌ يتقن لغة الآباء والأجداد ؛ دفعه شعوره بواجبه إلى وضع الكتب التي تقرب اللغة الأيرلندية إلى مواطنيه، فهبوا يساعدونه في مهمته حتى انبعثت من رقادها وشاعت، وصارت النواة التي تجمّع حولها الشعب، فنال استقلاله واستعاد هويته، وكافأ الشعب ذلك المعلم بانتخابه أول رئيس لجمهورية (أيرلندا) المستقلة هو الرئيس "ديفاليرا".

الثانية: ألمانيا : كانت ألمانيا مقاطعات متفرقة متنابذة، إلى أن هَبَّ "هَرْدِر" الأديب الألماني الشهير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ينادي بأن اللغة هي الأساس الذي يوحِّد الشعوب، والنواة التي تؤلف بينها، فانطلق الأدباء يعكفون على تراثهم القديم أيام كانوا أمة واحدة، وقاموا بإنعاش تراثهم الأدبي، ونسجوا حوله قصصًا وبطولات خَلَبَت ألباب الشباب، وتغنوا بجمال بلادهم، وأمجاد أسلافهم، فتجمّعت عواطفهم على حبّ الوطن الكبير، وتطلعت نفوسهم إلى الانضواء تحت لواء هوية ألمانية واحدة، الأمر الذي مهد الطريق أمام "بسمارك" لتعبئة الشعور القومي، وتوحيد ألمانيا، وإقامة الإمبراطورية الألمانية التي كان "بسمارك" أول رئيس وزارة (مستشار) لها.

الثالثة: كوريا الجنوبية : أدركت كوريا مكانة اللغة الأمّ، وعلاقتها بالهوية، وخاصة بعد الاحتلال الياباني، الذي عمد إلى طمس الهوية، عبر فرض اللغة اليابانية، لتدرَّس في المدارس الكورية عام ١٩٣١م ؛ لذلك عمد الكوريون فور استقلالهم بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م، إلى الاهتمام المضاعف باللغة الكورية عبر الاهتمام بالمدرسة، والمعلم، والكتاب، والمكتبة . وقدّروا المعلم معنوياً ومادياً، حتى إن راتب المعلم في مرحلة التدريس للطفولة المبكرة، لا يقل عن ألفين وثلاثمائة دولار شهرياً.

واشترطوا فيمن يتخصص في تعليم اللغة للأطفال، اجتياز امتحان قدرات لغوية، شعراً ونثراً شفهياً وتحريرياً.

واستخدم الكوريون تقنيات تربوية غير تقليدية، تعتمد الحوار، وكتابة التعبير والقصة، وتستعين بالفنون المتنوعة، مثل المسرح، والتمثيل، كما تستعين بالمسابقات، والرّحلات العلمية والترفيهية، وتدرب الأطفال على استخدام الحاسوب، ووسائل المعلومات .

وأولى الكوريون أهمية خاصة للقنوات التلفزيونية، فخصّصوا خمس قنوات منها للأطفال، كما خصّص في القنوات الأخرى وقت محدّد لبرامج الأطفال، وكلّها تبث باللغة الكورية الفصحى. وأولوا اهتماماً بالتأليف والترجمة للطفل، حتى إن ما يؤلّف ويترجم في جميع فروع المعرفة، يخصّ الطفل منه ٣٧٪ [١].

* * *

(١) ينظر تجارب الدول الثلاث : لغتنا أو الهاوية - حسين الدسوقي، مجلة التوحيد : www.altawhed.com/Detail.asp?InNewsItemID=170252

الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية: كوريا والصين نموذجاً - بقلم: د. فيحاء عبد الهادي، موقع مفتاح :

www.miftah.org/Arabic/Display.cfm?DocId=6922&CategoryId=2

تجربة كوريا الجنوبية في الحفاظ علي اللغة الكورية عند الطفل - د. يوسف عبد الفتاح - مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة (القاهرة ١٧-١٩ فبراير ٢٠٠٧)

www.arabccd.org/arabic/PDFs/37.pdf

مع كلّ ما سبق ذكره من جوانب النقص لدينا ندرك مواطن الخلل لدينا، لكنّنا قادرون بإذن الله على تجاوز تلك العقبات، فلغتنا ذات فاعليّة وقدرة على العودة ثانيةً كما كانت لغة العلم والمعرفة، وقدراتها كامنةٌ تنتظر من أهلها أن يستخرجوها إلى عالم التطبيق.

أنا موقنٌ – كما ذهب بعض منصفي المستشرقين – أنّ العربيّة ستعود قويّةً كما كانت، لكنّها لا تنتظر معجزةً تنتشلها من ضعفها بل إيمانَ أهلها بقيمتها والعمل لإعادتها إلى مكانتها اللائقة بها.

إنّ لغتنا تنتظر منّا اعتزازاً بها كاعتزاز اليابانيّين بلغتهم، فقد نهضت اليابان من عثرتها بعد الحرب العالمية الثانية في التوقيت نفسه الذي حصلت فيه مصر على استقلالها تقريباً، وقد بدأت من الصفر في التعليم والتقدم بترجمة جهود الأمم التي سبقتها إلى اللغة اليابانية، مع أن اللغة اليابانية لها سبع طرق في الكلام وثلاث طرق في الكتابة، وكتابتها تستغرق وقتاً أطول من غيرها، لكنّ ذلك لم يكن عائقاً أمام اليابانيين بل على العكس تماماً فقد ساعدهم استخدام لغتهم على الاستيعاب السريع وسرعان ما تحولوا من متعلمين إلى علماء بزّوا من سبقهم من الأمم، فلم تقف عقبات الترجمة أمامهم، ولم يتخوفوا من فشلهم في الترجمة، ولم تقف قلّة المراجع بلغتهم أمام نهضتهم، بل بجهودهم ظهرت المراجع المترجمة ثم المؤلفة في وقت وجيز[(١)].

للنهوض بالعربية :

جرى النقاش كثيراً وأُجريَت البحوث العلميّة لمعرفة أسباب الضعف الشائع في اللغة العربية، واقتراح الحلول لمعالجته، ولم يعد الأمر محتاجاً إلى كثير كلام وإنّما إلى حلول عمليّة تتناول أسس المشكلة، ومع أنّ ما سبق ذكره يتضمّن بعضه العلاج، ولكيلا أطيل حول هذه المشكلة فإني أطرح حلولاً يدركها أيّ مهتمٍّ بهذا الضعف، فمن تلك الحلول :

---

(١) ينظر: المنظور اللغوي لمواكبة الحضارة – الدكتور/محمود محمد عز الدين قاسم.

* إعادة النظر في مناهج التعليم ليكون الهدف منها إكساب دارسيها القدرةَ على الارتقاء بلغتهم المنطوقة والمكتوبة، فتقديم اكتساب مهارات اللغة على حفظ قواعدها النظرية هو الأكثر نفعاً لتحقيق الارتقاء المنشود، ويلزم لذلك ما يلي :

(أ) الاكتفاء من علومها المختلفة بما يحتاجه الدارس من قواعدها ونظرياتها، فلا ينكر منصف أن كثيراً مما نعلّمه لطلابنا هو جوانبُ نظريّةٌ ومعلوماتٌ معرفيّةٌ لا يحتاجها مَنْ يسعى إلى الارتقاء بلغته، فمنها ما هو تفريعاتٌ وإضافاتٌ لا يضرّ الجهل بها، بل إنّ المتخصّص تمضي السنوات دون أن يحتاج إلى بعض تلك التفصيلات.

والدعوة إلى الاستغناء عن تلك التفصيلات ليس رغبةً في إسقاط قيمتها العلميّة، لكنّه تقديم الأهمّ – وهو تحصيل مهارات اللغة – على الأقلّ منه أهميّةً، ولا ينفي ذلك أهميّة دراسة تلك التفصيلات للمتخصّص المتقن، لكنّ توجيه الجهود التعليمية إلى الأهمّ يعطي الوقت الكافي والقدرة لدى المعلّم والمتعلّم للعناية بذلك الجانب من اللغة، والانتقال بدراستها من التعليم النظريّ إلى التطبيقيّ.

(ب) العناية بالجانب التطبيقيّ وعدم الاكتفاء بالعلم النظريّ ؛ ويكون ذلك بجعل تطبيق ما يتعلّمه الطالب أساساً للتعليم، بتدريب الطالب على تطبيق ما يتعلّمه في حديثه وفي كتابته، وبذا يعتاد لسانُه وقلمُه على ذلك، وهو ما نشهده في تعليم اللغات الأجنبيّة، فما يتعلّمه الدارس يطبّقه في كلامه وكتابته في قاعة الدرس.

* الارتقاء بالعربيّة في الحياة العامّة، والحفاظ على الذوق اللغويّ العامّ، ويكون ذلك بتطبيق الأنظمة الموضوعة للحفاظ على سلامة اللغة في الحياة العامّة، وأعني بها المظاهر التي تكون اللغة أحد عناصرها في الحياة، كالمعاملات التجارية المختلفة والأسماء التجارية، وفيما يلي أورد بعض الأنظمة التي تدعو إلى الحفاظ على العربيّة:

[١] صدر مرسوم ملكي برقم م /١٥ الصادر وتاريخ ١٢ /٨ /١٤٢٠هـ يقضي بالموافقة على نظام الأسماء التجارية، وقد جاءت المادة (٣) من نظام الأسماء التجارية تدلّ على حفاظ النظام على اللغة العربيّة، ونصّ المادة الثالثة هو: **(يجب أن يتكوّن**

الاسم التجاري من ألفاظ عربيةٍ، أو معرّبةٍ، وألا يشتمل على كلماتٍ أجنبيةٍ، ويُستثنى من هذا الحكم أسماء الشركات الأجنبية المسجّلة في الخارج، والشركات ذات الأسماء العالمية المشهورة، والشركات ذات رأس المال المشترك (المختلطة) التي يصدر بتحديدها قرارٌ من وزير التجارة) .

مصدر القرار : موقع وزارة التجارة:

http://www.commerce.gov.sa/circular/٠٢-إ-٠١.asp

[٢] صدر تعميمٌ من رئيس مجلس الوزراء الملك عبد الله بن عبد العزيز برقم ٣٣١٩/م ب وتاريخ ٢٣ /٤ /١٤٢٧هـ بالتأكيد على ما وجّه به مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٧ / ٤ / ١٤٢٧هـ القاضي بأن **تلتزم جميع الجهات الحكومية والمؤسسات العامة والشركات المملوكة للدولة باستعمال اللغة العربية في مراسلاتها، وفي تحرير العقود ومرفقاتها ووثائقها المختلفة التي تتمّ بين هذه الجهات والشركات والمؤسسات الأجنبية .**

ويتبيّن ممّا سبق أنّ الأنظمة تدعم الحفاظ على العربيّة، لكنّ الأمر بعد ذلك يتعلق بتطبيق هذه الأنظمة والتزامها من جانب العاملين في تلك النشاطات، وهو ما يحتاج إلى مطالبة الغيورين على العربية ودعوتهم إلى ذلك .

***

لو نظرنا إلى حال المتخصّصين في العربيّة وجهودهم في ميدان الحفاظ على اللغة والسعي للارتقاء بها لوجدنا أمراً عجباً !! فمع علمهم بها فالكثير منهم ينظرون إلى هذه الأمور وكأنها لا تعنيهم، فهنا انفصالٌ بين التخصّص والانتماء، فلديهم التخصّص لكنّ بعضهم يفقد الانتماء الذي يدفعه إلى حمل همّ العمل لها، ولدى آخرين قد نجد هذا الانتماء مع قلّة علمهم باللغة، وعندما يحمل المتخصّص همّ اللغة ويكرّس جهوده لخدمتها فإنّه يتفوّق على غيره، لجمعه بين الانتماء والعلم، لكنّ وجود هذا الصنف من الناس ليس كثيراً، فلو أُقيمت إحصائيّةٌ على المتخصّصين لكانت نسبة العاملين في ميدان خدمة اللغة ونشرها وتطويرها نسبةً ضئيلةً تشعرنا بالخجل عند نظرنا إلى جهود متخصّصي اللغات الأخرى لخدمة لغاتهم .

إنّ علاج التردّي في حال لغتنا الكريمة يمكن أن يبدأ من كلّ فردٍ منا، فمع ضرورة أن يكون التغيير في المدارس والجامعات والمؤسسات والمراكز المعنيّة باللغة وتعليمها، لكنْ علينا ألا ننتظر حتى تبدأ تلك المؤسسات بالتغيير، بل يستطيع كلٌّ منا أن يُسهم إيجابياً بما لديه من قُدرات في خدمة اللغة ونشرها، ولا شكّ أنّنا نختلف باختلاف قدراتنا ومدى علمنا باللغة، فما يُنتظر من متخصّصٍ فيها عالمٍ بها غيرُ ما يُنتظر من عاشقٍ لها غيورٍ عليها، لكنّ الجميع يستطيع العملَ للغة، سواءً كان بتعليمها، أو الدفاع عنها، أو تقريبها للآخرين وزرع الاعتزاز بها، وربما تؤثّر كلمةٌ من صادقٍ أكثر من تأثير كتابٍ متخصّص.

مع سعة موضوع هذا البحث لكنّي حاولت إثارة بعض جوانبه، مع يقيني أنّه يحتاج إلى بحوثٍ عديدةٍ تعالج جوانبه، مع السعي إلى نقاش جوانبه وطرح تفصيلاته بكثيرٍ من الصراحة، ولمحاولة وضع اليد على الجرح لمعرفة العلاج بعد ذلك تأتي أهميّة الكشف الصريح عن هذا الموضوع، وهو ما حاولت فعله في هذا البحث المختصر.

وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد العزيز بن حميد الحميد

- كلية اللغة العربية - جامعة الإمام

موقع صوت العربيّة:

www.voiceofarabic.com

abuferas١@hotmail.com

مصادر البحث

الكتب:

* الإحكام شرح أصول الأحكام – ابن حزم الأندلسي (بلا بيانات للنشر) .

* الاعتصام – الشاطبي، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة .

* اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق : د. ناصر العقل، مكتبة الرشد – الرياض، ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .

* الإيضاح في علل النحو – الزجاجي ص ٧٠، تحقيق مازن المبارك – القاهرة ١٩٥٩م

* الإيمان – ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط الثالثة ١٣٩٩هـ، دمشق – بيروت .

* البداية والنهاية – ابن كثير، ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ، مكتبة المعارف – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م

* البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: د. يوسف المرعشلي ورفاقه، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٠.

* تحت راية القرآن – مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية – بيروت ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

* تراث الإسلام (الجزء الثالث) - تصنيف شاخت وبوزوث - سلسلة عالم المعرفة .

* تصحيح الفصيح وشرحه - ابن درستويه، تحقيق د. محمد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

* الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع – الخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

* الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي – بيروت.

* الرد على النحاة – ابن مضاء الأندلسي - حققه الدكتور شوقي ضيف ونشرته دار الفكر العربي بالقاهرة

* الرسالة لمحمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت.

* الزينة في الكلمات الإسلامية العربية - أبو حاتم الرازي، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني، دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٥٧ م .

* الفصحى لغة القرآن - أنور الجندي - دار الكتاب اللبناني - بيروت، دار الكتاب المصري - القاهرة .
* فنّ الترجمة وعلوم العربية - إبراهيم بدوي الجيلاني، الهيئة العربية للكتاب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ
* الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - ابن قيم الجوزية، حققت أصوله وضبطه جماعة من العلماء - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
* القومية العربية ودور التربية في تحقيقها - يوسف خليل يوسف، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م .
* اللغة - ج. فيندريس - تعريب عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، ١٩٥٠م .
* اللغة العربية - نذير حمدان ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م - مؤسسة علوم القرآن - بيروت .
* لغتنا والحياة - د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ"، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .
* مجموع فتاوى شيخ الإسلام شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعها : الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم .
* المستدرك على الصحيحين - الحاكم النيسابوري، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر ٢٠٠١م .
* من قضايا اللغة العربية المعاصرة - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٩٠م
* الهوامل والشوامل - أبو حيان التوحيدي، مسكويه، تحقيق أحمد أمين، السيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م .
* وحي القلم - مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية - بيروت ٢٠٠٢م

البحوث :

* اتخاذ العربية لغة لتدريس العلوم في التعليم العالي - د. محمود فوزي حمد، مجلة اللسان العربي ٢٤ /٨٥ .
* العربية أفضل اللغات عقلاً ونقلاً - عبد العزيز بن صالح العسكر، جريدة الجزيرة الثلاثاء ٠٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ العدد ١٢٥٩٨ .
* اللغة العربية وتحديات العصر - الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله - مجلة اللسان العربي - العدد (١٣) السنة ١٩٧٦م
* مقدمة مدّ القاموس - إدوارد لين - ترجمة عبد الوهاب الأمير - مجلة المورد - المجلد ٥ العدد ٢ ص ٤٣ .

* مقال أ. د. يحيى الرخاوي – جريدة الأهرام - قضايا وآراء العدد ٤٢٩٨٠ - الاثنين ٩ أغسطس ٢٠٠٤

* مقال عن أفضلية العربية – د. محمد صفاء العلواني - جريدة الحياة ٢٠٠٧/٢/٢ .

* نحن لسنا الأفضل بالضرورة ولغتنا العربية ليست أفضل اللغات - د. عبد الله الحمود - صحيفة الجزيرة، الأحد ٢١ صفر ١٤٢٨هـ

من الشبكة العالميّة :

*تجربة كوريا الجنوبية في الحفاظ علي اللغة الكورية عند الطفل - د. يوسف عبد الفتاح (مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة (القاهرة ١٧-١٩ فبراير ٢٠٠٧):
www.arabccd.org/arabic/PDFs/٣٧.pdf

* الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية : كوريا والصين نموذجاً - بقلم: د. فيحاء عبد الهادي، موقع مفتاح :
www.miftah.org/Arabic/Display.cfm?DocId=٦٩٢٢&CategoryId=٢

* حوار مع د. رشيد بلحبيب حول واقع اللغة العربية في الاستعمال اليومي . موقع (صوت العربية)
www.voiceofarabic.com

* دليل الأطباء العرب – مركز تعريب العلوم الصحية www.acmls.org

* المفاضلة بين اللغات – خالد جميل محمد – موقع عفرين :
http://www.efrin.net/efrin٠٣/arabi/adab-u-fan/index/٢٠٠٥/٠٩/٢٩,١.htm

* اللغة العربية وآراء المفكرين الغربيين – الأستاذ إدريس بن الحسن العلمي (موقع صوت العربية
www.voiceofarabic.com.(

* لغتنا أو الهاوية – حسين الدسوقي، مجلة التوحيد :
www.altawhed.com/Detail.asp?InNewsItemID=١٧٠٢٥٢

* لغتنا الجميلة في زمن العولمة – الدكتور نحاج قدور، (عن تاريخ مسلمي أسبانيا لرينهارت دوزي ٣١٧/١)، شبكة الدفاع عن السنة :
http://www.d-sunnah.net/forum/archive/index.php/t-٣٨٤٣٢.html

* المنظور اللغوي لمواكبة الحضارة – الدكتور/ محمود محمد عز الدين قاسم، مدرس الجراحة بكلية طب قصر العيني – دكتوراه الجراحة العامة، ، موقع العرب نيوز :
http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/١٠-٠٥-٢٠٠٢/Qasem.htm